ما هي الحروب الصليبية؟

تأليف : جوناثان رايلى سمث

ترجمة : دكتور محمد فتحي الشاعر

١٩٩١

توزيع دار المعارف

ما هي الحروب الصليبية؟

تأليف : جوناثان رايلي سمث

ترجمة : دكتور محمد فتحي الشاعر

١٩٩١

توزيع دار المعارف

١ - ما هى الحـــروب الصـــليبية ؟

كانت الحركة الصليبية من أشهر العمليات العســـكرية فى تاريخنا • ونظرا لاتساع نطاق تلك الحركة ، فانها شغلت فكر ووجـــدان الأوربيين الغربيين فى الفترة ما بين ١٠٩٥ الى ١٤٠٠ م الى حد بعيد لدرجة انه من النادر وجود كاتب معاصر لها لم يشر اليها ، او الى مصير الامارات الصليبية التىقامت علىالشواطىء الشرقية للبحر المتوسط او فىاسبانيا ، او على امتداد ساحل بحر البلطيق • وظلت الحروب الصليبية تحرك المشاعر الى حـــد ما حتى اواخر القرن الثامن عشر • بل ومن الصعب على المرء عدم الاهتمــام بتاريخ الحروب الصليبية : اذ حدثت تلك الحروب تاييدا لقضية يمكن وصفها وتصويرها على انها كانت من أشرس المعارك ومن اكثرها اثارة للخـــزى والعار • وعكف الناس على دراسة الحروب الصليبية عبر القرون من أجل الوصول الى عناصر الابداع والالهام والاثارة او من اجل النظر اليها بغية ان يتعلم المرء من دراستها ما يجب عليه اتباعه ، وما ينبغى عليه اجتنابه • وفى العصور الحديثة يعتبر الفرنسيون تلك الحروب الصليبية على أنهـــا المحاولات الاستعمارية الأولى التى قام بها شعبهم ، وفى فلسطين اعتبـــر الانجليز انفسهم سنة ١٩١٧ م ورثة للفرنسيين بشأن كل ما يتعلق بتراثهم هناك ، واعتقد الاسرائيليون الشىء نفسه منذ العقود القليلة الماضية • وفى حركة الكنائس الحديثة التى يقوم بها علماء لاهوت التحرر theologians of Liberation واصـــحاب مذهب الفعالية فى اليســـار الجـــديد activisits of the new Left بالتعبير عن بعض افكار المدافعين عن الحروب الصليبية دون أن يبدو عليهم ادراك وفهم الحقيقة • وعلى أية حال فقـــد ادخلت الحروب الصليبية قوى جديدة على المسرح السياسى فى اقليم شرق البحر المتوسط ، وهى التى قدر لها البقاء اكثر من ستمائة سنة ، وأنهـــا ساعدت على تدعيم المبادىء الدينية فى المسيحية اللاتينية التى تبدو عـــلى انهـــا مكملة لهـــا •

وبالرغم من ذلك ، فبعد الف عام من الاهتمام وقرون من الدراســة الأكاديمية ، ما زال من يعرف فكرة واضحة عن ماهية حرب صليبية مجـرد اقلية ضئيلة • وقام الأستاذ اتش ايه • ماير H.E.Mayer بجذب الانتباه نحو الطريقة غير العادية التى يسير على نهجها كثير من الأبحاث عن الحروب الصليبية دون وجود نقطة بداية متفق عليها ، ومن ثم فقد سعى ماير جاهدا من أجل وجود تعريف محدد لمصطلح « حرب صليبية a crusade دون أن يكتنفه أى التباس وان يكون واضحا كل الوضوح • وعندما قمت بتاليف هذا الكتيب أستهدفت الوصول الى الهدف المتواضع الخاص بتعريف الحرب الصليبية بأقصى ما يمكن من البساطة وعلى الأقل اثارة بعض المناقشة عن المبادىء الأساسية الأولى للحروب الصليبية • وإتعشم أن تعريفى سوف يثبت جدراه كشىء يستطيع الباحثون الرجوع اليه قبل أن يعكفـــوا على الدراسات التاريخية المفصلة عن الحروب الصليبية •

على اية حال ، فالتعريف سهل • اذ لن يجد المرء صعوبة اذا ما حاول أن يقدم وصفا دقيقا لأمر مهم شغل أوربا لفترة طويلة من الوقت • وبالاضافة الى ذلك ، يوجد قليل من الأوصاف الواضحة فى كتابات العصور الوسطى ، وهناك افتراض حديث العهد بأن الشذرات المتعلقة بالموضوع والتى صــدرت عن رجال القانون الكنسى ، وعن علماء اللاهوت لهى دليل على عزوفهـــم عن ربط الكنيسة بالعنف • وكان من السهل على الكتاب المسيحيين التـــوفيق بين اقوال المسيح عن العنف وبين الضرورة الملحة لوجود النظام والاستقرار فى هذا العالم ، اذ لا توجد عبارة واحدة محددة يمكن استخدامها بكل دقة لوصف الحملة الصليبية أو المشاركين فيها • وبالاضافة الى ذلك فالكلمات العامية المتعددة التى ظهرت فى القرن الثالث عشر الميلادى مثل كلمة صليبى Croiserie فى كل من فرنســا وانجلترا ، وكانت هناك تسمية رحلة الحج الى الأماكن a pilgrimage (iter orperegrinatic) والحرب المقدسة a holy war (bellum sacrum or guerre sainte) والرحلةو الرحلةالعامة a passage or general passage (passagium generale) وحملة الصليب an expedition of the Cross (expeditio crucis) أو قضية المسيح عيسى the business of Jesus Christ (negotium Jhesu ChrKisti)
ومن الجدير بالملاحظة أن كثيرا من تلك العبارات استخدمت بهدف التعبيـر

باسلوب لطيف euphemisms . ومع ذلك ففى اواخر القرن الثانى عشر صارت كلمة صليبى Crucesignati مع وضع شارة الصليب تستخدم للاشارة الى المشاركين فى حملة صليبية . وفى بداية الأمر اطلق عليهم لفظ حجاج ، واستمر هذا اللفظ عدة قرون ، وبخاصة اذا قادوا حملة عسكرية تجاه المشرق الاسلامى . على ان ما يجعل الأمر مقبولا الى حد ما هو ان نذكر بأن المؤرخين الذين كتبوا عن النظام الاقطاعى قد واجهوا مشاكل مشابهة . اذ لم يسلموا من القيام بمحاولات جدية لتحديد وتعريف نظام اجتماعى واقتصادى وسياسى مهم والذى كان خاضعا للتغيرات الاقليمية واستمر فترة من الوقت ولم يجدوا له تعريفا موجزا معاصرا . وليس من المدهش امكانية وصف الاقطاع بكل انواع الأساليب المختلفة ، بيد أن الشيء المهم هو أن المحاولات تمت وان كثيرا منها قد اضافت الكثير الى فهمنا عن العصور الوسطى .

ولا ريب أن المعاصرين للحروب الصليبية عرفوا جيدا ماهية حملة صليبية . ولكن كيف أدركوا مفهوم حملة صليبية بكل وضوح ؟ والواقع أننا نستطيع ان نرى الاشارات التى تجعل الشيخص المسيحى يعلم بان هناك حملة صليبية صليبية ، وذلك فى كتابات كل كتاب الحوليات ، ورجال الدعوة المسيحية ، ورجال القانون الكنسى ، وفى طريقة صياغة كلمات الأوامر البابوية . واول شيء هو أن المشاركين فى حملة صليبية أو بعضهم تتم دعوتهم لمشاركة عن طريق قيامهم باخذ عهد على أنفسهم بالانضمام الى حملة عسكرية محددة الأهداف . وكان للقسم نفسه طبيعة خاصة ، وسوف أتحدث عنه بشيء من التفصيل فى الصفحات التالية ، غير انه فى هذا الحين كان هناك اتفاق عام على وجود نوع من الطقوس العامة ذات طبيعة متعارف عليها مع وجود اختلافات طفيفة من مكان الى آخر ، وهو أن يقوم الرجال والنساء من الأغنياء والفقراء والكهنة والعلمانيين بتقديم تعهد اختيارى بالمشاركة فى الحملة العسكرية . ومع ذلك يجب الا نعتقد أن اى حملة صليبية اشتملت على مقاتلين فحسب ، ذلك لأن عدد هؤلاء المقاتلين كان قليلا وبخاصة فى بعض حملات القرن الثالث عشر حيث كان هناك عدد كبير من المتطفلين ، والراغبين فى خدمة الجند كوسيلة لكسب عيشهم فى صحبة اى جيش ، فى حين صار امرا شائعا بالنسبة لعدد كبير من الجند المحترفين

أن يقاتلوا لقاء راتب ، بل ان كثيرا من الذين نذروا انفسهم للمشـــاركة فى حملة صليبية كانوا يذهبون فى صحبة حملة صليبية الى المشرق ومعهم مبالغ كبيرة من المال بغية استئجار جند مرتزقة • وبالاضافة الى ذلك فبحلول القرن الثالث عشر الميلادى لم يقم كثير من الذين اقسموا على المشاركة فى حملة صليبية بالذهاب فى صحبة حملة عسكرية ، اذا مارسوا ما عـــرف باسم البديل Substitution او الفـداء redemption ، وهـــو ما سأقوم بشرحه بالتفصيل فى الصفحات التالية ، وذلك بان ارسلوا اشخاصا اخرين بدلا منهم ، أو تبرعوا بمبالغ كبيرة من المال بدلا من الذهاب ، ومن ثم ساعدوا على تمويل اى حملة عسكرية • ومن المهم ملاحظة ان كل الحمـــلات الصليبية لم تكن كبيرة ، ومنظمة باتقان ، وهى التى قام المؤرخون باعطائها أرقاما غير صحيحة الى حد ما • فكانت الحملات تتكون من جماعات غيـــر مترابطة تذهب الى المشرق الاسلامى فى اوقات مختلفة خـــلال العديد من السنوات فى اوقات معينة ، فعلى سبيل المثال اتخذت الحملات الصـــليبية فى السبعينيات من القرن الثانى عشر أو أواخر القرن الثالث عشر ذلك النمط • والعلامة الثانية هى أن الحملة الصليبية كان يتم اعدادها على اساس أن المشاركين فيها استجابوا لدعوة لم تصدر الا من البابا نفسه • وثالثا ان نتيجة لتنفيذ العهد بالمشاركة فى حملة صليبية حظى الصليبيون بمزايا معينة كانت معلومة جيدا • وكانت تلك الامتيازات خاضعة لسنة التطور ، وتم اضافة حقوق جديدة لتلك التى سبق منحها ، غير انه يمكننا القول أن كل الصليبيين كانوا مطمئنين تمام الاطمئنان على رعاية اسرهم ، ومصالحهم ، وعقاراتهم ومنقولاتهم طوال فترة غيابهم . وبالنسبة للغفران الكنسى الذى تمنحه الكنيسة الكاثوليكية the Indulgence فقد حصلوا على اسمى الامتيازات الروحية • وذلك بغفران كل ما تقدم وما تاخر من الذنوب مع دخول الجنـــة بغير حساب ، وهذا الغفران يمنحه البابا او من يمثله شخصيا •

وهناك اشارات عن هذا الغفـــران فى المنـــاشير البابوية العـــامة encyclicals عند ابلاغ الناس عن الاستعدادات لشن حرب صليبية •

واذا كان منح الغفران لكل من شارك فى بعض الحملات الصليبية التى دارت فى غرب أوربا الا انه كان على وجه التخصيص يمنح لكل من يشـــارك

فى الحملات الصليبية من أجل الاستيلاء على بيت المقدس أو الدفاع عن النفوذ الصليبى فى المشرق الاسلامى ·

وقال البابا كاليكستوس الثانى Calixtus II سنة ١١٢٣ م بشأن اسبانيا : « اننا نمنح كل الذين يقاتلون بكل قواهم فى هذه الحملة غفران الخطايا الذى منحناه للمدافعين عن الكنيسة الشرقية » ·

وقال البابا اوجينيوس الثالث Eugenius III سنة ١١٤٧ م بشأن المانيا : « الى كل أولئك الذين لم يشاركوا فى الحملة الصليبية الى بيت المقدس، ثم عقدوا العزم على مقاومة السلاف the Slavs ، وصمموا على الاستمرار فى المشاركة فى الحملة الصليبية ضد السلاف ، نعلن اننا قررنا منحهم جميعا الغفران الذى اصدره لأول مرة سلفنا البابا اوربان Urban صاحب الذكرى البهيجة لكل من شارك فى الحملة الصليبية الى بيت المقدس » ·

وقال البابا انوسنت الثالث Innocent III سنة ١٢٠٧ م بشأن الحرب ضد الالبجنسيين Albigensians « اننا نتمنى لكل أولئك الرجال الذين حملوا السلاح لمقاتلة الخونة (الذين خرجوا على تعاليم الكنيسة heretics) ، أن ينعموا بغفران الخطايا الذى منحناه الى كل أولئك الذين يناضلون لمساعدة الأراضى المقدسة » ·

وقال البابا انوسنت الرابع سنة ١٢٤٦ م عندما اعلن الحرب على الامبراطور فردريك الثانى Frederick II : « اننا نمنح غفران كل الذنوب ما تقدم منها وما تأخر مع دخول جنة الخلد بغير حساب Indulgence لكل أولئك الذين يأخذون على عاتقهم هذه المهمة الشاقة سواء شاركوا بأنفسهم أو بأموالهم ، والى أولئك الذين لم يشاركوا بأنفسهم ، وانما أرسلوا محاربين ، على مستوى الكفاية ، على نفقتهم الخاصة ، وفقا لحالتهم المالية ومنزلتهم ، وكذلك أولئك الذين تولوا القيام بهذا الواجب على نفقة الآخرين ، ونتمنى لهم أن ينعموا بهذه الامتيازات والاستثناءات التى صدرت عن المجمع التام لأولئك الذين هبوا لمساعدة الأراضى المقدسة ·

وقال البابا حنا الثـــانى والعشرون John XXII سنة ١٣٢٦ م بخصوص أسبانيا : « نعتقد انه من المستحق أن نمنح الغفران الى هؤلاء مثلما حصل عليه ، أولئك الذين هبوا لمساعدة الأرض المقدسة من الكرسى البابوى المقـــدس » .

ومن خلال قراءة ما تقدم من منح الغفران الكنسى وغيره من الأمثلة الأخرى المشابهة يصبح من الواضح ان كثيرا من الحملات العسكرية فى اسبانيا ، وعلى امتداد شواطىء بحر البلطيق ، والحملات العسكرية ضـــد الخارجين على تعاليم الكنيســـة heretics ، والمنشـــقين عليهـــا Schismatics بل وحتى ضد السلطات العلمانية فى غرب أوربا كانت الادارة البابا papal curia تنظر اليهـا على اعتبار انهاكلها من صنف الحملات الصليبية التى ذهبت الى المشرق الاسلامى . ويوجد تاكيد على ذلك فى كتابات رجـــل القانون الكنسى الشـــهير هوستينسيس Hostiensis (ت ١٢٧١ م) ، وفى ممارسته الاستبدال فى القرن الثالث عشر ، حيث استطاع المرء ان يغير شروط القسم الذى اداه ، فمثلا بدلا من ان يذهب فى حمـلة لمساعدة الأرض المقدسة من الممكن ان يشارك فى حملة صليبية فى داخـل القارة الأوربية بدلا من ذلك . ومن المستحيل تماما الاتفاق فى الراى مع اولئك المؤرخين الذين اقروا بان الحملات الصليبية هى الحملات العســكرية التى اتجهت الى بيت المقدس ، او أرسلت لمساعدة فلسطين فترة ســيطرة اللاتين عليها فحسب : اننا لا يمكن ان نتجاهل الحقيقة القائلة بان النـــاس فى العصور الوسطى كان افقهم رحبا اكثر من ذلك المفهوم . غير انه لابد لنـا ايضا من أن نضع فى اعتبارنا ان هناك عددا من الحملات الصليبية التى اقرها البابوات الا أن من شارك فيها لم ينعموا بغفران متساو مع الغفران الذى حصل عليه اولئك الذين شاركوا فى الحملات الصليبية التى اتجهت الى بلاد الشام .

وبالنسبة للمعاصرين للحروب الصليبية كانت اى حملة صليبية هى حملة عسكرية اقرها البابا ، وان المشاركين فيها والذين يتولون قيادتها قد اقسموا على المشاركة ، ونتيجة لذلك فلهم ان ينعموا بالمزايا الخاصة بحماية ممتلكاتهم فى أوطانهم ، والحصول على غفران ما تقدم وما تاخر من ذنوبهم ، مع دخول الجنة بغير حساب Indulgence . وكان هذا الغفران يتساوى مـع

الغفران الممنوح لمن اتجهوا ناحية الشرق ، وذلك اذا ما قدر لهم الذهاب الى أى مكان آخر • وهذا يمكننا من تحديد مقومات أى حملة صليبية الى حـــد ما • وفى مقدرتنا ان نتعرف على ما يجعل أى حملة عسكرية مؤهلة للحصول على موافقة البابوية حتى تصير حملة صليبية ، وبذلك يتم السماح للصليبيين المشاركين فيها بأن يقسموا على مواصلة المشاركة ويحصلون على المـزايا الناجمة عن مشاركتهم ، وذلك بتفحص الملامح العامة لتلك الحملات التى جرى العرف على اعتبارها حملات صليبية • ولا ريب ان تلك الحملات كانت حروبا فى المقام الأول برغم ما قيل عنها انها كانت حربا تسمو فوق الأهداف المادية، وقال المدافعون عنها انها كانت وسائل لاقرار السلام فى الغرب الأوربى فى حين أن الحملات الصليبية التى ذهبت الى المشرق الاسلامى قيل عنها انهـا كانت رحلات لزيارة الأماكن المقدسة • غير أن كل الحملات الصليبية كان متوقعـا لها أن تكون متفقة مع المبادىء المفهومة ضمنا والى حد ما تحدد الخـدمة العسكرية للمسيحيين •

واذا كانت هناك مناسبات جعلت من خوض الحرب عملا من المـمكن تبريره لوجود أكثر من سبب ، ونظرا لأن الكثيرين قد اعتقدوا بوجود مثـــل تلك المناسبات منذ أوائل القرن الخامس الميلادى ، لذلك فلابد لنا من الاعتراف بأنه فى بعض الأحوال كانت هناك ضرورة لصرف النظر عن الوصية الخامسة the Fifth Commandment من الوصايا العشر المقدسة ، وهى الخاصـة بتحريم القتل • ولكن ما هى تلك الظروف والأحوال ؟ والواقع انه وفقا للتقاليد والعرف السائد يمكن القول بوجود اجابتين على هذا الســـؤال بين أولئك لمسيحيين الذين لا يعارضون الحرب أو العنف not pacifists • الاجابة الأولى وهى الاكثر شيوعا والاكثر اهتماما ، وهى ما يطلق عليها بنظرية الحرب الحتمية وفقا للدراسات التفصيلية الوحيدة التى اتفق على بحثها بتفصيل علماء اللاهوت من وجهة النظر الأخلاقية • وتقوم تلك النظــرية على التسليم بأن استخدام العنف من الكبائر فى كل زمان ومكان ، بيد انها تسلم بوجـــود حالات لا يمكن السكوت عليها ، وشريطة أن تخضع لقواعد صارمة ، وعنـد ذلك فقد يغفر الله ذنب اشعال نيران الحرب •• وفى مطلع القرن الخامس للميلاد كان القديس اوغسطين من هيبو St Augustine of Hippo أول، وربما ما يزال أكبر مفكر مسيحى ثقافة عن هذا الموضوع حيث حاول تحديد المعايير التى يمكن بها أن تكون أمرا مسموحا بحدوثه ، وذلك قبل أن ينظر اليهـا على

انها من الأمور التى من الممكن تبرير حدوثها نظرا لوجود عدة اسباب مقنعة لحدوثها • وبمرور الوقت تعرضت تلك المعايير للاختصار ، كما تعرضت للتبسيط ، والايضاح الى حد كبير على أيدى رجال اللاهوت والقانون الكنسى، وصارت ثلاثة معايير • فالمعيار الأول هو انه لابد من وجود قضية عادلة (Causa Justa) ، ومن الطبيعى أن تكون تلك القضية ، اما عدوان مضى عليه عهد قريب أو ما زال واقعا ، أو عمل ترتب عليه ضرر بالغ على يدى شخص آخر • اما المعيار الثانى فهو ضرورة أن تستند الحرب على ما كان معروفا بسلطة الملك (auctoritas principis) ويمكن التعبير عن طريق سلطة شرعية ، وجرت العادة أن تكون تلك السلطة علمانية ، على الرغم من اننا سنرى أن السلطة الكنسية هى التى أصدرت قرار اعلان الحملة الصليبية• وقبل حدوث أو قيام الحروب الصليبية بخمس سنوات قام ايسيدور من سيفيل Isidore of Serville بتلخيص المعيارين الأولين فى جملة صارت ضمن مجموعات القانون الكنسى : « ان الحرب المشروعة والعادلة هى التى تدور رحاها من اجل استرداد الممتلكات أو لصد هجوم » • وعرف المعيار الثالث بالهدف القويم (intentio recta) • وهو ما يعنى أن كل مشارك فى الحرب يجب أن تكون دوافعه سامية ، وأن يؤمن بأن الحرب هى الوسيلة الوحيدة التى لابد منها لتحقيق الهدف الذى من أجله خاض غمارها •

ومع ذلك فقد كانت الحروب الصليبية وسائل للتعبير عن مفهوم آخر ، وهى انها حرب مقدسة Holy War ، حيث كانت القوة العسكرية ينظر اليها على أنها تحظى بكل المبررات التى تجعلها غير قاصرة على غفران الله لما ينجم عنها فحسب ، وانما موافقته عليها بكل تاكيد • ولم يحظ الموضوع بالاهتمام الذى يستحقه من رجال اللاهوت والمؤرخين ، بيد أن نقطة البداية للبحث والدراسة هى أن كل الكتاب المسيحيين الذين قبلوا بفكرة العنف ، سواء أكان هناك تبرير أم أنه مبنى على مفهوم دينى ، فانهم يقرون بأن له جانب سلبى بالاضافة الى وجود جانب ايجابى • ان شن الحرب عمل سياسى تفرضه الحوادث فى هذا العالم ، ولذلك فالجانب الايجابى للحرب يرتبط باحتياجات حالة عدم استقرار طبيعى ، وربما يكون الهدف من شن الحرب وضع النظام الى نصابه • ولم تذهب أدلة وبراهين الحرب الحتمية أكثر من ذلك ـ غير أن أنصار فكرة الحرب المقدسة الذين ربطوا ذهنيا بين

الله وبين بعض ما يجرى فى الأمور السياسية أو سلسلة الحوادث السياسية علنا وبثبات ، قادهم اعتقادهم هذا الى ان استخدام العنف لتأييد البنـــاء السياسى يعمل على زيادة اهتمام الله بالجنس البشرى • واصبحت الحـرب اكثر من ضرورة غير انها كانت رد فعل بغيض للظلم او للعدوان • على أن الحرب خطوةايجابية وفقا لمشيئة الله ما دامت تخوضها حكومة شاء الله قيامها • واعلن يعقوب مارتيان Jacques Maritain منذ أربعين عاما مضت أنه لا يصح شن حرب مقدسة الا اذا ارتبطت المصالح الدنيوية مع ارادة الله ارتباطا لا انفصام له •

غير أن الحرب المقدسة ظلت حربا مسيحية ، وأن الاقتناع بأنها مقدسة لم يستثنيها من القيود التى وضعها الفكر المسيحى المتوارث بشأن اللجوء الى أستخدام العنف • وعلى وجه التخصيص بشأن ضرورة أن تكون تلك الحرب متطابقة مع معايير القضية العادلة ، ومع سلطة الملك ، ومع القصد السليم • ولا ريب أنه ليس لها أسباب ودوافع يمكن أن يعتبرها رجال اللاهوت عـادلة أو أن كل من شارك فى الحملات الصليبية كان لديه دوافع سامية ومجـردة من كل عرض الدنيا • غير أن الانحرافات لا يمكن لها أن تنقص مما يجب أن تكون عليه أى حملة صليبية ، برغم أن الدراسات الخاصة بمثل تلك الأمور تلقى الضوء على الطبيق العملى للمثل الأعلى للعمـــــل الصليبى • وكان المدافعون عن الحروب الصليبية حريصين على الكتابة عن الغفران الكنسى الذى كانت تمنحه الكنيسة الكاثوليكية للمشاركين فى الحملات الصليبية ، حيث كان يتمتع به الذين لا يمكن الطعن فى دوافعهم ، او اثارة الشكوك حولها ، كما بذل هؤلاء المدافعون كل جهد مستطاع لتوضيح كيف كانت الحمـــلات العسكرية تحدث نتيجة لأسباب عادلة ، والأهم من ذلك كله فقد كان المشاركون فى الحملات الصليبية كلهم من المتطوعين ، ولم يكونوا من المجندين الزاميا ، وهؤلاء المتطوعين لم يشاركوا الا بعد اقتناع تام • ويهتم هذا الكتاب بالتحديد والتعريف ، وليس باصدار الأحكام على دوافع المشـــاركين فى الحملات الصليبية أو قيمة تلك الحملات •

٢ - قضـــية حتميـة

الحرب من اجل قضية حتمية :

بحلول منتصف القرن الثالث عشر للميلاد كان المؤلفون المسـيحيون على اتفاق بصفة عامة بأن الحرب من أجل قضية حتمية هى الحرب الدفاعية، وانتشرت تلك الأفكار وعمت فى الوقت الحاضر · ومن المحتم على المـرء الدفاع عن بلده ، وعن حقوقه وأساليب حياته التى درج عليها ، كما أنه من المحتم على المرء العمل على استرداد ممتلكاته التى استولى عليها اى شخص دون وجه حق ، بل ومن الواجب على الانسان أن يضع موضع التنفيذ اى حكم قضائى يصدر وذلك باستخدام العقوبة البدنية · وليس من العدل شن حرب من اجل التوسع او اجبار الآخرين على اعتناق دين معين · وسوف نرى أن هذا المبدأ انطبق على الحرب الصليبية التى لا تقل عن اى حرب ، غير انه خـلال القرن الأول للحركة الصليبية عندما كانت مسالة حتمية الحرب موضـــع دراسة وبحث ظهرت بعض المبررات الأولى التى تبيح شن حرب صليبية · وكان تعريف القديس أوغسطين St Augustine للحرب العادلة على أنها تلك التى تحدث انتقاما لما لحق بالانسان من أذى وأضرار · يفترض أن حالتها أقل بكثير من المقارعة بالسيف ، بالنسبة لمفهوم الانتقام ، الذى جال بخـاطر رجال القانون الكنسى حتى حوالى سنة ١٢٠٠ م ، والذى يبدو انه تم التخلى عن هذا المفهوم رويدا رويدا فيما بعد ، وبتوضيح عام وشامل للأذى والأضرار التى لابد من الانتقام والثار لها فهى أى انتهـــاك لكل ما هو خير ويتضمن الفضيلة ، وشريعة الله أو العقيدة المسيحية · وحتى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد يبدو أن هوستنزيس Hostiensis اعتقد أن للعالم المسـيحى الحق كل الحق فى مد نفوذه وســـيطرته على كل أولئك الذين لا يعترفون بالكنيسة الرومانية أو الامبراطورية الرومانية · ومع ذلك ففى وقت سابق على هذا التاريخ يبدو أن هناك بعض الخلط والتشويش بخصوص اذا ما كان مسموحا للحملة الصليبية أن تكون حربا من أجل الاجبـــار على اعتناق المسيحية أم لا ، وفى وقت شن الحملة الصليبية الأولى مال البعض الى تنفيذ هذا المفهوم ، وتمكن روبرت الراهب Robert the Monk احـــد كتاب الحوليات من اقناع البابا أوربان الثانى Pope Urban II ، فى كليرمونت

Clermont في تذكير جمهور المستمعين اليه بشارلمان ، ولويس التقى وغيرهما من ملوك الفرنجة ، « الذين نجحوا فى القضاء على الكيان السياسى للممالك الوثنية ، واجبـــروا سكان تلك الممالك على الاندماج فى كيـــان الكنيسة المقدسة » • وفى احدى الرسائل التى وصلت الى البابا سنة ١٠٩٨ م، وبعد استيلاء الصليبيين على انطاكية كتب قادة الحملة الصليبية أنهم حاربوا الأتراك والوثنيين ، بيد انهم لم يحاربوا الطوائف الخارجة على مذهب الكنيسة الكاثوليكية heretics ، وطلبوا من البابا أوربان أن يحضر اليهم بنفسه لاستئصال كل المذاهب الدنيوية المخالفة للكنيسة heresies من جذورها•

على أن شن حرب ضد الوثنيين لاجبارهم على اعتناق النصرانية التى ظلت أحد العوامل الرئيسية فى الفكر الألمانى كانت فكرة واضحة سنة ١١٤٧ م ابان الاستعدادات الشن حملة عسكرية ضد الوثنيين فى شمال شرق أوربا • ان قرار الموافقة البابوى المقدس Divina dispensatione الذى اجاز شن الحملة الصليبية الألمانية ، وردت به تاكيدات على ضرورة اعتناق النصرانية، وعلى ضوء ذلك قام القديس برنارد St Bernard المسئول عن تلقى الدعـم من البابا ، بمنع عقد أى هدنة مع الوثنيين منعا باتا ، فكتب فى رسالة : « انهم بعون الله سوف يعتنقون المسيحية أو سوف يبادوا عن بكرة ابيهم » ويجب التأكيد على ان قرار الموافقة الذى أصدره البابا أوجينيوس Eugenius III لم يرد به تبريرا صريحا بأن الحملة الصليبية ما هى الا حرب من أجل اجبار الوثنيين على التنصر ، وانما وجد القديس برنارد أن الوثنيين يهـــددون العالم المسيحى تهديدا مباشرا ، وأنه ليس هناك من مناص سوى القضـــاء على هؤلاء الوثنيين اذا ما رفضوا اعتناق التعاليم المسيحية • غير أن ارتباطا وثيقا بين النشاط التبشيرى والحرب كان على الدوام سمة بارزة للحروب الصليبية فى شمال أوربا • وفى سنة ١٢٠٩ م بذل البابا انوسنت الثـالث جهودا بهدف تشجيع ملك الدانمرك من أجل المشاركة فى حملـــة صليبية والحصول على الغفران الكنسى الذى تمنحه الكنيسة للصليبيين الألمان ، « من أجل اقتلاع جذور الوثنية والعمل على امتداد حدود الدين المسيحى » •

ولا شك أن هذه جملة غير عادية صدرت عن احد كبار رجال اللاهـــوت الكنسى واحد كبار رجال الدين تولوا قيادة الحركة الصليبية من بين بابوات العصور الوسطى ، بالرغم من أن خطابه تضمن الاشارة الى قيام الوثنيين باضطهاد المبشرين المسيحيين • وربما كان ذلك نتيجة لحظة جاد فيها البابا

انوسنت الثالث عن الصواب أو أحد رجـــال الدين فى ادارته البـــابوية his Curia غير أن ذلك التصريح لم يكن التصريح الوحيد الذى أعلنه بخصوص الحروب الصليبية • ففى سنة ١٢٠١ م أصدر هذا البابا قـرارا بابويا يعلن فيه امكانية انضمام أى رجل الى الحروب الصليبية دون الحصول على موافقة زوجته نظرا لحالة المعاناة الموجودة فى الأراضى المقدسة • وكان ذلك مخالفا للمبادىء المتوارثة عن القانون الكنسى بشأن النتائج الملزمة والأعباء المتعلقة بعقد الزواج ، والخاص بأنه لا يجوز لأحد الزوجين رفض الحقـوق الزوجية من جانب واحد دون موافقة الطرف الآخر • وكان ذلك خطأ بسيطا وفيما بعد كان رجال القانون الكنسى حريصين على قصر الاستثناء على الحالة الوحيدة الخاصة بخير ومصالح الأرض المقدسة • ويمكن فهم ما كتبه البابا انوسنت الثالث الى ملك الدنمراك وعن زوجة أى صليبى بالنظر الى انشغال ذلك البابا بالحركة الصليبية ، وهو انشغال شـــــديد فاق أشغال أى بابا باستثناء البابا جريجورى العاشر •

على أن الآراء التى نادت بالانتقام لما لحق بالمسيحيين من أذى واضرار لمجرد رفض الاعتقاد بالمسيحية أو رفض قبول السيطرة المسيحية ، ومحاولة اجبار الناس على اعتناق المسيحية بالقوة والتى شكلت وكونت الأســـباب الحتمية ، كلها كانت ناجمة عن اقليات ولم تصدر على الاطلاق عن المفكرين المسيحيين المشهورين وأصحاب المكانة المرموقة ، والذين كان بينهم اتفـــاق عام بأنه لا يمكن اجبار غير المسيحى على قبول النصرانية أن يتعرض للاذى لمجرد أنه يعتنق ديانة أخرى • ويبدو أن الاعتقاد الخفى المناقض للايمـــان بجدوى الحملات الصليبية من أجل التنصير أولا وقبل كل شىء أصابه الضعف عندما بدأ اتجاه الرأى العام يتغير سنة ١٢٠٠ م ، حيث دخلت الكنيسة فى ذلك الحين عصر فلسفة توما الأكوتينى Thomist age حيث أكد ذلك العصر على حقوق غير المسيحى ، وعلى الاقناع عن طريق الحجة والمنطق • ومنذ منتصف القرن الثالث عشر أعلن البابا انوسنت الرابع رسميا موافقته على الأفكار التى جرى العرف على قبولها • فأكد ذلك البابا على أن لغيـر المسيحيين حقوق فى الشريعة الطبيعية Natural Law وأن أى حرب تستهدف الاجبار على اعتناق النصرانية هى حرب غير شرعية ، بيد أنه فى الوقت نفسه حاول تقديم الادلة والبراهين على أن الأرض المقدسة مملوكة للمسيحيين من

ناحية العدل والشرعية فقد صارت مقدسة لأن المسيح عاش بها ثم صارت ضمن الامبراطورية المسيحية فى حرب حتمية • ونظرا لاعتبار هذا البابا نائبا للمسيح ووريثا للاباطرة فقد أعاد التاكيد على حق المسيحيين فى السيادة والحكم والتشريع والتملك فى فلسطين وان الحروب الصليبية الى الشرق هى مجرد عملية استرداد لاقليم تابع للعالم المسيحى من ناحية العدل والشرعية • وبالاضافة الى ذلك فيمكن ان تشن الحرب الحتمية لمقاومة أى ضرر او أذى او عدوان ، وكعقاب لارتكاب الآثام ، ومن ثم فمن حق البابا أن يعلن الحرب الصليبية ضد أى حاكم غير مسيحى ليس لمجرد انه غير مسيحى، وانما لأنه خلق العراقيل والتهديدات فى وجه النصارى ، أو انه رفض السماح للجماعات التبشيرية المسيحية بممارسة عملها فى اراضى دولته ، على سبيل المثال • ومن الممكن ملاحظة العوامل المؤثرة للبابا انوسنت بوضوح فى كتابات هوستيسيز Hostiensis وفى بحث كتبه همبرت الرومانى Humbert للبابا جريجورى العاشر فى أوائل السبعينيات من القرن الثالث عشر • وتصدى همبرت للرد على أولئك الذين قالوا أن المسيحيين لا يحق لهم بدء مهاجمة المسلمون • وذكر همبيرت أن المسلمين كانوا مصدر خطر على النصارى وحاولوا كلما استطاعوا الحاق الأذى بالمسيحية، اذ انهم استولوا على الأراضى التى كانت فى حوزة المسيحيين ، وبالاضافة الى ذلك فانهم يوافقون علنا على الحاق الظلم بالمسيحيين اذ لا يمكن أن يعيش مسيحى معهم فى سلام دون التعرض للملامة • ولذلك ذكر أن غزو أراضى المسلمين عمل له ما يبرره، وحث النصارى على مهاجمة المسلمين لاضعاف نفوذهم ، والعمل على اعادة سيطرة التعاليم المسيحية فى تلك البلاد • وبالاضافة الى ذلك فقد أكد على أن الحملة الصليبية ليست عدوانا لأنها تستهدف استرداد أراضى كانت مسيحية •

ومنذ عهد قريب ساد اتجاه بأن الحروب الصليبية ، باعتبارها حروب مقدسة ، كانت فى الحقيقة خاضعة للقوانين التى تقرر الحروب الحتمية ، وذلك مثلما كان يرى البابا انوسنت الرابع • غير أن المقاييس التقليدية للحروب المقدسة ، حتى لو كانت تحت البحث والمناقشة فقد مالت بشدة لصالح المدافعين عن الحروب الصليبية منذ البداية • ومن الجدير بالملاحظة أن الدعاية المتواصلة لصالح الحروب الصليبية ــ سواء الى الشرق أو فى اسبانيا ، على

امتداد شواطىء بحر البلطيق ، وضد المسيحيين الذين جاهروا بمذاهب دينية تتعارض مع تعاليم الكنيسة فى روما heretics ، او ضد القوى العلمانية المسيحية - عملت على تبريز شن تلك الحروب من منطلق استرداد الأراضى والممتلكات السلبية او التصدى للعدوان ·

الحروب الصليبية فى المشرق الاسلامى :

عندما دعا البابا أوربان الثانى للقيام بالحملة الصليبية الأولى كانت حتمية الحرب تشغل فكر ذلك البابا · ففى الأسبوع الأول من مارس سنة ١٠٩٥ م عقد أساقفة من فرنسا وايطاليا والمانيا مجمعا كنسيا فى بيزا Piacenza ، وأرسل الكسيوس الأول كومينينوس Alexius I Comnenus الامبراطور البيزنطى وفدا سياسيا لمكان اجتماع هؤلاء الأساقفة لمناشدة البابا أن يستحث سكان غرب أوربا للدفاع عن الكنيسة الشرقية ضد خطر الأتراك الذين اجتازوا آسيا الصغرى ، واصبحوا على مشارف القسطنطينية · فرد أوربان على ذلك بعظة دينية طالب فيها الرجال بمساعدة الامبراطور · وتوحى رحلته التبشيرية التى قام بها بعد اجتماع بيسنزا Paicenza بانه كان يفكر فى حشد جيش صغير لارساله الى الشرق ، وربما كان ذلك الجيش تحت قيادة الكونت ريموند التولوزى Raymond of Toulouse الذىكان قد عرض على البابا جريجورى السابع Gregory VII ارسال حملة عسكرية عبر البحار ، وكان الجيش تحت الرياسة الروحية لكل من ادهيمار من مونتيل Adhémal of Monteil لو بوى Bishop of Le Puy ، اللذين سبق لهما الذهاب الى بيت المقدس· وبعد قضاء حوالى شهر فى بيسنزا اجتاز البابا اوربان الثانى Urban II شمال ايطاليا حتى وصل فرنسا · وكان فى صحبته حاشية تكونت من أربعة كرادلة ، واثنين من رؤساء الأساقفة ، والمستشار البابوى الشهير حنا من جاتا John of Gaeta ، لدعم ومساندة دير كلونى Cluny الذى كان رئيسا له من قبل ، وللاشراف على اصلاح الكنيسةالكنيسة الفرنسية · وفى لو بوى Le Puy مركز ابرشية ادهيمار المونتيلى ، أصدر البابا اوربان الثانى دعوة لعقد مجمع فى كليرمونت Clermont · وفى اواخر اغسطس كان البابا اوربان الثانى فى مكان يدعى جيليز Gilles ، وهو مقر اقامة مفضل للكونت ريموند التولوزى حيث .

قابله هناك حيث كانت اخبار الدعوة للحملة الصليبية قد وصلت الى جنـوب فرنسا ، وجاء رسل الكونت ريموند التولوزى يعلنون انضـمامهم للحملة الصليبية . ثم سافر البابا أوربان الثانى على مهل عبر وادى الرون Rhone الى دير كلونى Cluny حيث وصله فى حوالى الثامن عشر من اكتوبر واقام بذلك الدير حتى نهاية الشهر . وفى الرابع عشر من نوفمبر كان اوربان فى كليرمونت ، وفى الثامن عشر من ذلك الشهر . افتتح المجمع الأول جلساته . وفى السابع والعشرين من نوفمبر ، وبعد انتهاء المهمة الكنسية وقف البـابا اوربان الثانى خطيبا فى الجماهير الغفيرة التى احتشدت خارج أسوار مدينة كليرمونت ، في العراء حيث أعلن بدء الحملة الصليبية الأولى ، وبمجـرد انتهاء الخطاب عرض ادهيمار استعداده الفورى للانضمام للحملة الصليبية بطريقة محركة للمشاعر ومثيرة لها ولابد من وجود اتفاق مسبق على ذلك لأن البابا عينه على الفور نائبا عنه لقيادة تلك الحملة . وبعد عقد مجمع كليرمونت قضى البابا أوربان الثانى ثمانية اشهر فى الدعوة للحملة الصليبية فى غرب فرنسا وجنوبها . وصار واضحا أن درجة الاستجابة لهذه الدعوة كانت كبيرة جدا ، وربما كانت اكبر مما كان يتوقع . وفى أواخر ديسمبر ارسـل البابا خطابا الى سكان اقليم الفلاندر Flanders يدعوهم فيه الى الانضمام الى الحملة الصليبية . وفى أوائل فبراير ١٠٩٦ اناب البابا رجلين من كبـار رجال الدين للدعوة للحملة الصليبية فى وادى اللوار Loire ، وفى نورماندى Normandy ، وفى انجلتـرا . ومن بافيا Pavia فى شهر سبتمبر كتب البابا الى الذين انضموا للحملة الصليبية فى بولونا Bolona ومن كريمونا Cremoua ، فى اكتوبر منع البـابا رهبان فالومبروزا Vallombrosa من المشاركة فى الحملة الصليبية .

ومن الصعب فى الوقت الحاضر الحديث عما كان يجـول بخـاطر البابا أوربان الثانى . اذ ان الخطاب الدينى الذى القاه فى كليرمونت وكذلك الرسائل التى وجهها الى رجال الدين والتى قدر لها البقاء حتى الآن كلهـا كتبت بايدى اربعة من كبار رجال الدين ، من المحتمل انهم عاصروه ، غيـر أنه لا توجد رواية واحدة من تلك الرسائل الأربع تمثل النص الحـرفى للكلام المنطوق والمكتوب للبابا أوربان الثانى ، كما أنها كتبت على ضـوء

نجاح الحملة الصليبية الأولى · ان النصوص التى ما زالت موجودة حتى الآن عن كل شيء بخصوص مجمع كليرمونت ، والحملة الصليبية ماخوذة عن مذكرات كتبها احد الأساقفة الذين شهدوا ذلك المجمع · وان كان لدينا ثلاث خطابات فحسب تتعلق بالموضوع بشكل مباشر ومن البابا أوربان الثانى نفسه ، والخطاب الأول تمت كتابته بعد مرور شهر واحد على مجمع كليرمونت · على أن وجود عدم ترابط منطقى طفيف فى تلك الخطابات الثلاثة، ووجود توكيد على تحرير الكنائس الشرقية ثم اشارة مباشرة الى الذهاب الى بيت المقدس كهدف لربط الحملة الصليبية بعمليات الحاج الى بيت المقدس، وانه ناشد مستمعيه بأن هدفه الحقيقى كان محصورا فى الرد الأخوى على الامبراطور البيزنطى للمساعدة على أمل احداث تقارب بين الكنائس اللاتينية واليونانية غير أن جمهور المستمعين اليه هم الذين أيدوا فكرة الاتجاه صوب بيت المقدس ، والذى فى الأصل كان هدفا دينيا ثانويا ، واستقر رأيهم حتى قبل تحرك الحملة الصليبية الأولى على اعتبار المدينة المقدسة Holy City الهدف الرئيسى · على أن هذا التفسير تعرض للاعتراض فيما بعد ، بعد تقديم الأدلة المقنعة ، من واقع الحوليات والوثائق التاريخية المرتبطة بجولة البابا فى فرنسا ابان دعوته للحرب الصليبية ، وهى انه على الرغم من مساعدة المسيحيين الشرقيين والعمل على اتحاد الكنائس كأهداف فان بيت المقدس كانت لها الأولوية فى فكر البابا أوربان الثانى منذ البداية ، اذ أن اسم بيت المقدس كان قويا ومؤثرا الى الحد الذى لا يمكن ذكره دون اهتمام وبخاصة من قبل مصلح وراهب كلونى سابق مثل أوربان الثانى · ومهما كان الشك بخصوص الأفكار المتعلقة بالدعوة للحملة الصليبية الأولى فليس هناك شكوك حول تبريرها : فهناك تكرار مستمر فى المصادر افكار التحرير (وهى كلمة اخرى بدلا من استرداد) والدفاع · وما هو موجود فيما ورد عى خطابات أوربان الدينية تظهره فى موضع الذى يتحدث بكل قوة عن تحرير بيت المقدس أو الدفاع عن الكنيسة الشرقية ، اذ كانت مسالة التحرير هى الفكرة الرئيسية للمبادىء التى اقرها مجمع كليرمونت عن الحملة الصليبية ، وفى خطابات أوربان ، وقد ظهر ذلك فى الحوليات المعاصرة لتلك الحوادث التاريخية ، وكلها ادلة دامغة على أن البابا أوربان كان يطالب الجميع بشن حرب استردادية ولا يعتبرها حربا عدوانية ·

ومن الطبيعى أن يتغير تبرير الحروب الصليبية الى فلسطين بعد الاستيلاء على الأراضى المقدسة هناك • فتلك الأراضى صارت مقدسة بوجود المسيح بها ، وصارت تحت أيدى مسيحية ولابد من الدفاع عنها • وأكد البابا اوجينيوس الثالث Eugenius على هذا المفهوم سنة ١١٤٥ م وتكررت كلماته فى خطابات بابوية بعد ذلك • « بنعمة الله وبحماسة آبائكم الذين ناضلوا من اجل الدفاع عن انفسهم على مر السنين ، والذين نشروا المسيحية بين شعوب المنطقة ، وظلت تلك المناطق فى ايادى المسيحيين ، واستولى المسيحيون على مدن خرى من أيدى الذين يقاومون المسيحية •• واذا ما استطعتم ايها الأبناء الدفاع عن الحقوق التى أحرزها الآباء فسيكون ذلك علامة كبرى للشهامة والاستقامة الدينية والأخلاقية • ولكن اذا ما حدث ما يخالف ذلك ـ لا قدر الله ـ فعندئذ ستصبح شجاعة الآباء اثرا بعد عين نتيجة لتقصير الأبناء » •

واستولى صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ م واستردها المسيحيون من ١٢٢٩ م الى ١٢٤٤ م • ولا ريب أن عملية استرداد بيت المقدس صارت أمرا لا مفر منه على الرغم من أن عبء الدعوة توقف على الحاجة للدفاع عما تبقى من المستوطنات الأوربية فى الأراضى المقدسة • بل ان غزو مصر الذى حدث فى عامى ١٢١٨ م و ١٢٤٩ م ، وجرى العمل من أجله فى أوقات أخرى كان ينظر اليه على انه مساهمة من اجل خير اللاتين فى فسطين • وذكر أحد كتاب الحوليات أن الملك حنا John ملك بيت المقدس سنة ١٢١٨ م هو الذى قدم النصيحة بغزو مصر أثناء انعقاد مجلس حرب الحملة الصليبية الخامسة : « لأنه اذا ما تمكنا من الاستيلاء على احدى المدينتين (يقصد الاسكندرية او دمياط) فانى أعتقد أنه بامكاننا استرداد كل الأراضى المقدسة فى مقابل اعادة تلك المدينة للمصريين » •

ولما كانت مصر جزءا من الامبراطورية الرومانية المسيحية ، لذلك فان استردادها يمكن تبريره بسبب كونها اراضى مسيحية فى وقت ما •

الحروب الصليبية فى أسبانيا :

كان قد مضى وقت طويل على حرب ضد المسلمين المغاربة فى أسبانيا

عندما نصح البابا اوربان الثانى أبناء اسبانيا من المسيحيين بالعدول عن الانضمام الى الحملة الصليبية الأولى ، ومنحهم حق الحصول على الغفران Indulgence ، وبذلك اقام تشابها بين حركات الاسترداد لشبه الجزيرة وبين فلسطين • وفى عامى ١١٠٠ م ، ١١٠١ م منع ايضا خليفته البابا بسكال الثانى Paschal II ابناء اسبانيا من المسيحيين من الذهاب الى الأرض المقدسة ومنحهم الغفران لكل من يظل فى اسبانيا يقاتل المسلمين ، وذلك لأنه لم يكن يرغب فى تعريض المسيحيين للخطر عند مغادرة البعض منهم الى فلسطين ، ومنذ حصل عليه ابناء اسبانيا من المسيحيين مع ذلك الذى كان يمنح للصليبيين الذاهبين الى بيت المقدس • وفى سنة ١١٢٣ م وجد الأساقفة فى مجمع لاتيران الأولبا First Lateran Council انمن الممكن الاشارةالى اولئك الذين اقسموا على المشاركة فى الحملة الصليبية اما الى بيت المقدس او الى اسبانيا حيث ان القسم فى الحالتين كان واحدا فى الموضوع • وفى عهد الحملة الصليبية الثانية استطاع أى كاتب معاصر ان يكتب عن الجيش المسيحى فى اسبانيا كجزء من جيش عرمرم فى عدة جبهات من العـــالم المسيحى •

وكانت اسبانيا ضمن الأراضى المسيحية فى وقت ما • غير ان اجــزاء كبيرة منها صارت فى ايدى اعداء المسيحية (يقصد المسلمين) الذين صاروا مصدر تهديد للمسيحيين فى شمال اسبانيا • وظلت الحملات الصليبية الأسبانية توصف بانهـــا دفاعيـــة مثلمـــا وصفت الحمـــلات الصليبية على المشرق الاسلامى • وفى سنة ١١٢٢ م تم تاسيس جمعيـــة زاراجوزا Zaragoza الدينية ، (للدفاع عن المسيحيين ، والتصدى للمظالم والاضطهاد الذى يمارسه المسلمون ، وكذلك العمل على تحرير الكنيسة المقدسة) •

الحروب الصليبية فى شمال شرق اوربا :

عندما كانت الاستعدادات للحملة الصليبية الثانية على قدم وســـاق سنة ١١٤٧ م ، رغب بعض الصليبيين الألمان ، وبصفة اساسية الساكسون Saxons ، فى شن حرب ضد السلاف Slavs عبر نهر الب Elbe بدلا من الذهاب الى الشرق • ووافق القديس برنارد St Bernard وهو الذى كان مسئولا عن الدعوة للمسيحية هناك • وربما كان مرجع موافقته

الى انه وجد تشابها فى المانيا مع مايجرى من احوال فى المشرق الاسلامى . ويبدو ان القديس برنارد قد تصرف وفقا لمبادرته الشخصية ، ثم ابلغ البـــابا اوجينيوس Eugenius غير ان البابا اعلن موافقته فى الراى مع برنارد وأصدر منشورا بابويا يعلن فيه أن الحملة الصليبية الألمانية تسير على المبادىء التى تسير عليها الحملات الصليبية فى أسبانيا وفلسطين . على ان شمال شرق اوربا لم تكن فى وقت من الأوقات جزءا من الامبراطورية المسيحية ، ومن ثم لايمكن تبرير الحملات العسكرية هناك على أنها عملية اســترداد لأراضى مسيحية . ومن الصعب تصور تعرض العالم المسيحى لكثير من التهديد على يد الشعوب السلافية المتخلفة : فى وقت كانت فيه علاقات العالم المسيحى معهم آخذة فى التحسن بشكل واقعى . وعلى الرغم من وجـــود عنصر تبشيرى فى المانيا فان الحملات العسكرية ضد جيرانها قيل عنها انها دفاعية ، وهكذا سار التوسع والدفاع جنبا الى جنب . وخير مثال عــلى ذلك ما هو موجود فى خطاب اعلن فيه البابا انوسنت الثالث Innocent III موافقته على تحرك الحملة الصليبية الليفـونية . the Livonian Crusade ١١١٩ م . واعتقد البابا انوسنت الثالث أن المسيحيين الجدد يتعرضـــون للاضطهاد فى ليفونيا Livonia على يد جيرانهم من الوثنيين . ولذلك كان لابد من حشد جيش ، « للدفاع عن المسيحيين فى تلك الأماكن » كما كــان هناك وعد بالحماية لكل هـــؤلاء الذين يذهبون ، « للدفاع عن كنيســـة ليفونيـــا » .

الحروب الصليبية ضد المنشقين والهراطقة :

منذ الأزمنة الباكرة لظهور المسيحية كان اللجوء لاستخدام القوة ضد المسيحيين الذين تمسكوا بمعتقدات تتعارض مع ما اقرته المجامع الكنسية امرا له ما يبرره فى المجتمع المسيحى ، وأطلقوا على المخالفين لتلك المجامع لفظ heretics . وفى حوالى سنة ١١٤٠ م وضع جريتيان Gratian العالم بالقانون الكنسى ، الأسس التى اعطت الكنيسة ذاتها الحق فى استخدام تلك القوة أكثر من القوى العلمانية ، غير أن اقتراح شن حرب صليبية ضـد مسيحيين متمسكين بمعتقدات تتعارض مع ما اقرته المجامع الكنسية تـم التوصل اليه سنة ١١٧٩ م فى مجمع لاتيرا the Third Lateran Council وفرضت قرارات هذا المجمع على كل المؤمنين محاربة المعتقدات المســيحية التى تتعارض مع قوانين المجامع الكنسية heresy ، والدفاع عن العـالم

المسيحى ضد اخطار تلك المعتقدات مقابل غفران خطاياهم . ويشار الى مثل تلك الحروب على انها عمل مشروع ، وأن هؤلاء الذين يشاركون لهم الحق فى الحصول على الغفران Indulgence لهم حق الحماية ، « مثل اولئك الذين زاروا القبر المقدس تماما بتمام » . وكانت الحملة العسكرية الصغيرة ضد الالبجنسنين Albigensians ، والتى كانت تحت قيادة ممثل البابا فى أوائل الثمانينات من القرن الثانى عشر ، ١١٨٠ م ، احدى نتائج القانون الجديد . على أن الحملة الصليبية المتعلقة بالمنشقين هى الحملة الصليبية الرابعة المشؤومة التى كانت فى الأصل معدة للذهاب الى فلسطين او الى مصر ، والتى انتهت بالاستيلاء على مدينة القسطنطينية المسيحية . وفى سنة ١٢٠١ م كانت الحملة العسكرية قد غيرت وجهة سيرها بالفعل ، اذ اقتنع قسم من الجيش بضرورة غزو امبراطورية الاغريق ، « لأن تلك الامبراطورية ليست خاضعة للكرسى البابوى فى روما ، ولأن امبراطور القسطنطينية اغتصب العرش الامبراطورى ، بعد أن عزل أخاه بل وسمل عينيه » .

وتجددت المبررات مرة ثانية فى ابريل ١٢٠٤ م بعد اغتيال الأباطرة البيزنطيين الذين اعتلوا عرش بيزنطة بمعرفة قادة الغرب الأوربى وذلك فى انقلاب حدث فى القسطنطينية ، ولذلك استعد الجيش الصليبى لاعداد الهجوم النهائى على المدينة . ودعا رجال الدين اللاتين للهجوم مقدمين المبررات ، ووردت الفكرة الرئيسية فى كتابات اثنين من شهود العيان وهما جوفرى من فيلهارديون Geoffrey of Villehardouin ، وروبرت من كلارى Clari « وأوضح رجال الدين للبارونات والحجاج انه هو الذى اقترف جريمة اغتيال (الأباطرة) وانه ليس من حقه تولى السلطة وأن كل هؤلاء الذين افقوا هم الذين حرضوا على الاغتيال وفوق كل ذلك فقد أعلنوا عدم طاعتهم لروما . وقال رجال الدين ، « ولهذه الأسباب نقول لكم ان هذه الحرب قانونية وعادلة ، وانه اذا كانت لديكم نية صادقة لغزو تلك البلاد واخضاعها لطاعة روما فان كل اولئك الذين يتوفاهم الله سينعمون بالغفران the Indulgence الذى يمنحه البابا » .

ومما يثير الاهتمام أن نجد مرجعا صريحا عن الحرب الصليبية يتطابق مع معايير حرب حتمية . وسيلاحظ أن أحد تلك الأدلة والبراهين هى أن

الحوادث السياسية فى القسطنطينية شكلت خطيئة ، وهى جريمة فى امكان الحرب الصليبية معاقبة فاعليها ، ففى سنة ١٢٠٣ م علق البابا انوسنت بأن مثل تلك الأمور لابد انهم ينضموا للحملات الصليبية من اجل التصدى لمثل هذا الأذى • وكما يجب علينا أن نتوقع فان الدليل الآخر هو أن الاغريق كانوا مختلفين مع الكنيسة فى روما • ومن الممكن فهم نوعية البراهين ذاتها فى اعلان انوسنت للحرب الصليبية الالبجنسية • على أن موعد بدء هذه الحرب هو موضوع المناقشة ، وربما تأخر هذا الموعد حتى اكتوبر ١٢٠٨ م ، وان كان البابا قد كتب بالفعل فى ١٢٠٤ م الى ملك فرنسا يحثه على حمل السلاح دفاعا عن الكنيسة ضد هؤلاء المسيحيين الذين يؤمنون بمعتقدات تخالف معتقدات الكنيسة فى روما ، وعرض البابا على ملك فرنسا الغفران Indulgence الذى يحصل عليه كل المشاركين فى الحملات الصليبية المتجهة الى الأرض المقدسة • وفى نوفمبر ١٢٠٧ م أشار انوسنت الى الأهوال الشديدة والمخاطر التى تحملها المعتقدات الدينية المسيحية التى تتعارض مع قوانين المجامع الكنسية heresy ، واعلن البابا بكل قوة واصرار ضرورة القضاء التام على تلك المعتقدات ، كما يستعمل الطبيب مشرطا لمعالجة جرح ، وبعد مقتل المندوب البابوى بطرس الكاستلنو Peter of Castelnau فى الرابع عشر من يناير ١٢٠٨ م طلب البابا من فيليب ملك فرنسا أن يحمل السلاح لحماية الكنيسة • وفى سنة ١٢١٥ م اكد مجمع لاتيران الرابع على أحقية الصليبيين بأن ينعموا بالغفران نفسه الذى يحصل عليه المدافعون عن الأراضى المقدسة • ومن الممكن أن نجد مبررات مشابهة فى مناسبات أخرى على سبيل المثال ، فى الثلاثينيات من القرن الثالث عشر ١٢٣٠ م ، عندما تحركت حملة صليبية تجاه شمال المانيا ضد فلاحى ستيدنجا the Stedinga peasants الذين كان ينظر اليهم باعتبارهم من المسيحيين الذين يؤمنون بمعتقدات تتعارض مع قوانين المجاميع الكنسية heretics ، وفى التسعينيات من القرن الثالث عشر ١٢٩٠ م ، عندما دعا البابا بونيفيس الثامن Boniface VIII الى شن حرب صليبية ضد الكولوناس Colonnas الذين وصفهم بانهم منشقين • ومهما بدت تلك المبررات غير وجيهة ، فقد كان هناك اعتقاد بأن الحروب الصليبية ضد المسيحيين المؤمنين بمعتقدات تتعارض مع قوانين المجامع الكنسية وضد المنشقين على الكنيسة الرومانية انما هى حروب دفاعية • وفى سنة ١٢٠٨ م كان البابا انوسنت الثالث (ينظر الى المسيحيين

الذين يؤمنون بمعتقدات دينية تتعارض مع قوانين المجامع الكنسية مثلمـــا كان ينظر الى المسلمين بعتبارهم احد الأخطار التى تهدد العالم المســيحى وقد وصفهم هوستينسيز Hostiensis بانهم يحدثون خطرا يفوق الخطـر الذى تتعرض له الأراضى المقدسة ٠

الحملات الصليبية ضد اصـــحاب السلطة والحكم من العلمانيين فى غرب اوربا ٠

غالبا ما جرى جدل واقاويل على لسان البعض فى القرن الثالث عشر الميلادى أن أقل الحروب الصليبية التى من الممكن تبريرها هى تلك التى شنتها البابوية ضد خصومها فى غرب أوربا ٠ غير ان هوستينزيس Hostiensis بررها للمرة الثانية وفقا للطريقة التقليدية عندما راى انه ليس هناك فروق بين « الذين لا يطيعون البابا » وبين المنشقين كنسيا ، او المسيحيين الذين يؤمنون بمعتقدات تخالف قوانين المجامع الكنسية ٠ وبالنسبة لبعض المؤرخين فان « الحملة الصليبية السياسية » الأولى هى التى قادها بوهيموند صاحب انطاكية سنة ١١٠٦ م ضد اليونانيين ، غير انه على قدر ما نستطيع القـول انه دعا الى تلك الحملة العسكرية بغية الاتجاه صوب بيت المقدس ، ومن الأكثر احتمالا ان الحملة الصليبية الأولى ضد مسيحى علمانى هى تلك التى دعا لها انوسنت الثالث ضد ماركورد من انويلر Markward of Anweiler وكان ماركورد احد قادة الامبراطور هنرى السادس ، الذى حاول السيطرة على منطقة انكونا the March of Ancona بعد وفاة الامبراطور ، وأن يسيطر على وصاية مملكة صقلية Sicily ، معارضا بذلك ما قام به البابا انوسنت الثالث عندما عين فردريك الثانى Frederick II ابن هنرى السادس ٠ ولما كان البابا انوسنت الثالث يعد العدة للحملة الصليبية الرابعة لذلك رد على ماركورد بالهجوم عليه متهما أياه ، بأنه من الناحية الواقعية ، حليفا للمسلمين ٠ « اننا نمنح كل الذين يقاومون اساليب العنف التى ينتهجها ماركورد ورجاله غفران الخطايا نفسه الذى نمنحه للذين يقاومون المسلمين ويدافعون عن الأقاليم الشرقية ، ذلك لأن ماركورد تسبب فى عرقلة مساعدة الأرض المقدســة » ٠

وفى الحقيقة كان البابا يعلن قيام حملة صليبية فى الوقت الذى يدعم فيه واحدة أخرى قد تم الاعداد لها : وكانت تصرفات ماكورد مصدر خطر على المساعدة التى يجب أن ترسل الى الأرض المقدسة ، وبهذه الطريقة فهو يمارس التهديدات والمخاطر نفسها التى يمارسها المسلمون ٠

وكان تنظيم تلك الحملة العسكرية لا يعطى الأمل بالنصر الأكيد ـ فقد ظهر فيما بعد انها كانت مجرد اجراء ينم على الياس بعدما تكللت كل الجهود الأخرى بالفشل الذريع ـ وفى سنة ١٢٠٣ م أسقط ماركورد عنها كل دواعى قيامها بسبب وفاته ، غير ان سلسلة الحوادث التاريخية ذاتها يمكن ملاحظتها فى القوانين الصادرة عن مجمع لاتيران الرابع ١٢١٥ م ، المتعلقة بأولئك الذين عرضوا السلام الأوربى للخطر ابان الحملة الصليبية ، « عندما ينظرون الى اللوم الكنسى بعد اهتمام كاف ، ويخافون من التعرض لتطبيق السلطة العلمانية التابعة للكنيسة قراراتها ضدهم باعتبارهم يعرقلون قضية المسيح ٠٠ » كما كانت موافقة البابا اكليمنت الرابع Clement IV على توجه حملة صليبية سنة ١٢٦٥ م ضد النبلاء الانجليز الذين تمردوا على الكنيسة ٠

والحركة التالية هى التى قام بها البابا جريجورى التاسع Gregory IX سنة ١٢٤٠ م ، وليست حركته التى حدثت فيما بين ١٢٢٨ ـ ١٢٣٠ م حيث أن حملته ضد الامبراطور فردريك الثانى Frederick II لم تكن بكل تاكيد حملة صليبية ويجب مقارنتها اكثر بالخطوات التى تم اتخاذها للدفاع عن البابوى فى القرن الحادى عشر ٠ وفى سنة ١٢٤٠ م نشبت الحرب مرة ثانية وكان فردريك الثانى يهدد مدينة روما ذاتها ٠ وفى روما عرض جريجورى الرفات المقدسة علنا وهى راسى القديسين بطرس وبولس ، ووزع الصلبان على العامة وطلب من الجميع الدفاع عن حرية الكنيسة ٠ وقام المندوب البابوى فى ميلان Milan بالدعوة لحملة صليبية وحشد جيش فى لومباردى Lombardy وتمت الدعوة الى الحملة الصليبية فى المانيا ايضا باذن البابا ٠ وتم ارسال خطاب الى بلاد الهنغار Hungary فى فبراير ١٢٤١م متضمنا المزايا التى ينعم بها الذين ينضمون الى الحملة الصليبية ، وهى أنهم سينعمون بنفس الغفران Indulgence الذى يحصل عليه الصليبيون

الذاهبون الى الأرض المقدسة ، وتم انجاز قسم المشاركة فى الحملة ، وكما تم استبدال قسم المشاركة فى الحملة الصليبية للدفاع عن فلسطين الى الحملة الصليبية ضد فردريك الثانى · وتم التأكيد على الطبيعة الدفاعية للحرب : واشار جريجورى الى أن المسيحية : « كانت فى خطر محدق » الأمر الذى جعل العمل العسكرى أمرا حتميا ، واشار الى « المسيحيين الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن الكنسة ضد فردريك » · والواقع أن التبرير الدفاعى كان السمة التى ميزت كل مواقف الاحتكام الى الحملات الصليبية ضد القوى العلمانية فى الغرب الأوربى ، فعلى سبيل المثال جرت الدعوة لحملة صليبية ضد فردريك الثانى سنة ١٢٤٦ م للدفاع عن الايمان الكاثوليكى ، وحرية الكنيسة ، وجرت الدعوة لحملة صليبية ضد بطرس ملك أرجوان Peter of Aragon سنة ١٢٨٤ م ، « من اجل الدفاع عن الايمان الكاثوليكى والأرض المقدسة أيضا » ·

سبب اى حملة صليبية :

ان اى حملة صليبية كان ينظر اليها على انها اجراء دفاعى حتمى ، ومن ثم خضعت للمبدأ الأساسى للقضية العادلة · وبالطبع لا يمكن أن يكون ذلك بعيدا عن فطنة الانسان عندما يحاول أن يبرر تصرفاته على نحو جدير بالتصديق من الناحية الظاهرية عندما يعرضها فى أفضل مظهر ممكن، وذلك بلفت الانتباه الى تهديد لم يقع فى الحقيقة بيد انه لا يمكن انكار أن للقضية العادلة نتائج مهمة على الحركة · وفى استطاعة اى بابا أن يدعو الى حملة صليبية ، غير أن نجاح تلك الحملة يعتمد على استجابة المؤمنين لدعوة البابا وليس على تلك الدعوة ، كما اكتشف كثير عن البابوات من واقع تجاربهم التى جانبها التوفيق · وحمل الناس الصليب من اجل كل أنواع الدوافع المفيدة وغير المفيدة ، غير أن شكوك عامة الناس اقلقت المدافعين عن الدين والباحثين من أصحاب النظريات مثل هوستينسيز Hostiensis ، وفى عصر مثالى لا يمكن ان يكون هناك دعوى دائمة ليس لها بعض المبررات الواضحة· ولذلك كان لابد من وجود قضية عادلة ولابد لها من الارتباط بعامل محدد لأن الحملة الصليبية لابد لها من الحدوث كرد فعل لما فعله الآخرون · وكانت المبادرة من جانب العدو ، وكانت الحملة الصليبية مجرد رد عملى بطىء على ما فعله العدو ، فى اغلب الأحوال ·

وكلما زاد اهتمامنا بدراسة أسباب الحروب الصليبية اتضح لنا انها فعلت اكثر من مجرد التطابق مع المقياس التقليدى لأى حرب عادلة ، اذ انها كانت لها ملامحها الخاصة بها ايضا باعتبرها ضمن الحروب المقدسة . ولم يكن استرداد الممتلكات او الدفاع متعلقا ببلد معين او امبراطورية معينة، وانما يتعلق بالعالم المسيحى ككل وبالكنيسة او بالمسيح نفسه . ولم تكن ممتلكات الامبراطورية البيزنطية او مملكة بيت المقدس هى التى قامت الحروب الصليبية لتحريرها او للدفاع عنها ، وانما هى اراضى تابعة للعالم المسيحى او الى المسيح . كما أن الذين تعرضوا لخطر المسلمين فى الأندلس Moors او خطر السلاف Slavs لم يكن ينظر اليهم على انهم مجرد أسبان Spanairds او المان Germans ، وانما باعتبارهم من المسيحيين . كما أن تهديد طائفة الالبجنسيين Albigensians للارث البابوى والكنيسة يفوق تهديدها لفرنسا .

ولكن نفهم هذا الاتجاه لابد لنا من أن نضع فى اعتبارنا الفلسفة السياسية التى سيطرت على الفكر الأوربى ابان فترة الحروب الصليبية . ان كلمة العالم المسيحى لها معانى كثيرة غير انها كمصلح سياسى لم يكن ينظر اليها على انها مجرد مجتمع المسيحيين وانما دولة عالمية ، الجمهورية المسيحية التى توجد فى السماء وعلى الأرض . ويتضمن المفهوم السياسى للدولة العالمية المسيحية انه فى استطاعة الانسان تنمية كل طاقاته الكامنة فى محبة الله ومحبة اخوانه فى المسيحية ، وأن هذه الدولة هى الوحيدة التى تنعم بالسعادة وأن الممالك الدنيوية ليس لها شرعية حقيقية ، باعتبارها فى أحسن الأحوال عرض زائل ، ويمكن اعتبارها اقاليم تابعة للمملكة المسيحية . ان الدولة المسيحية لها ممتلكاتها ولها مواطنوها . على ان اقليما كان يحكمه المسيحيون واصبح فى أيدى الغرباء يجب أن يعود الى حكمهم ، ويجب مقاومة اى تهديد سواء أكان من الداخل أم من الخارج . واصبحت الحملة الصليبية وفقا لهذا المفهوم هى جيش تلك الدولة الذى يقاتل دفاعا عنها او لاسترداد ممتلكاتها التى ضاعت . واستطاع قادة الحملة الصليبية الأولى الكتابة عن اتساع رقعة ، « مملكة المسيح والكنيسة » . واستطاع القديس برنارد St. Bernard القول بأن قضية لويس السابع ملك فرنسا ، والخاصة بالذهاب للشرق ليست اهميتها قاصرة عليه فحسب ، » وانما لكل كنيسة الله ، لأن قضيتك

الآن هى احدى قضايا العالم كله ، وبعد مرور قرن على ذلك التاريخ قدم اودو من شاتورو Odo of Châteauroux الهدف نفسه فى احدى عظاته . يقول احد الأشخاص ، « ان المسلمين لم يسيئوا الى البتة . ولماذا يجب على أن أحمل السلاح ضدهم ؟ غير انه اذا ما فكر جيدا لأدرك ان المسلمين الحقوا ضررا بالغا بكل مسيحى » .

وفى أواخر الأربعينات من القرن الثانى عشر ، وعندما كانت الحروب الصليبية تشتعل نيرانها على عدة جبهات فى وقت واحد كانت النظرة اليها على أنها فرق حربية فى جيش مسيحى واحد .

وكتب أحد كتاب الحوليات الألمان : يبدو لخبراء الحملة العسكرية أن جزءا من الجيش يجب أن يرسل الى الأقاليم الشرقية ، وجزء اخر الى اسبانيا ، وثالث ضد السلاف الذين يعيشون بجوار الألمان .

كانت الدولة المسيحية العالمية ملكية ، اقامها المسيح وحكمها ، وفى هذا العالم يقوم البابوات والأساقفة والملوك بادارة شئونها باعتبارهم ممثلين شخصيين للمسيح . وأعداء شعب هذه الدولة هم أعداء لملكها . واشار الكتاب الي المسلمين فى الشرق زمن الحملة الصليبية الأولى على أنهم « أعداء الله » . وورد أن البابا اوربان الثانى قال فى احدى عظاته، « ان الرب هو الذى يدعوكم ولست انا ، .. وليعلم كل حاضر وليبلغ كل غائب انها اوامر المسيح » . وحيا أوربان الثانى الصليبيين باعتبارهم ، « جنود المسيح » ، فى الوقت الذى تكب فيه الصليبيون عن انفسم بانهم « جيش الرب » وكانت الصليبية بالنسبة الى انوسنت الثالث هى عملية المسيح نفسه بصفة خاصة ، وان اولئك الذين يساعدون المسلمين انما يتصرفون ضد « مصالح المسيح نفسه وضد مصالح الشعب المسيحى » .

ويعود اعتبار الحرب الصليبية مقدسة وليست مجرد عمل ممكن تبريره، ذلك بسبب الطبيعة الخاصة لفكرتها وارتباطها بالنظام السياسى المقدس الذى اقامه المسيح لصالح البشرية . وكنت المشاركة فى الحروب الصليبية مقابلة مكافاة لها طبيعتها الخاصة والاستثنائية . وكان ينظر الى المشاركة فى حرب حتمية على انها عمل من اعمال الفضيلة فى مستوى أداء الخدمة الوطنية

على سبيل المثال • وقد تحدث جيمز من فيتر James of Vitry المبشر الشهير، عن الحرب الصليبية باعتبـــارها واجب الزامى على كل مسيحى كالخدمة العسكرية التى من الواجب على اى تابع اقطاعى Vassal القيام بهـــا لصالح سيده الاقطاعى •

« عندما يتعرض سيد اقطاعى الى فقدان ما ورثه يحاول ان يثبت لزملائه اخلاص وولاء أتباعه الاقطاعيين • ان كل من يتولى ادارة اقطاعة لسيد اقطاعى متمتع بحق الولاء الاقطاعى يقدمه اليه اتباعة يحـــرم من ادارته للاقطاعة اذا ما تخلى عن مساعدة سيده الاقطاعى فى وقت الشدة عند الدخول فى معركة وفقد هذا السيد الاقطاعى ما ورثه • ان الله هو الذى خلقك جسدا وروحا ، ولن كل ما تملك هو من عنده ، واليوم يطلب الله منك ان تخوض معركة من اجله ، وعلى الرغم من عدم وجود رباط اقطاعى معه ، فانه يقدم لك الكثير ، وكل ما هو خير لك ، وهو غفران كل الخطايا ، مهما كان الذنب او الجرم ، وستنعم بالحياة الأبدية ، ومن ثم فعليك بالتنفيذ الفورى » •

منذ القرن التاسع الميلادى كان هناك حديث رسمى عن السبيل الجديد للاستشهاد ، الا وهو الموت فى الحرب ضد المسلمين ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى ظهر مفهوم غفران الخطايا للمحاربين وفكرة جندى المسيح فى تدبير مفصل قامت به البابوية • وعلى عهد البابا اوربان الثانى صـــارت الحرب الصليبية ينظر اليها على انها عمل فاضل ، ووسيلة للحصول عـلى النعمة الالهية ، التعبير عن حب الله الذى يحارب المرء من أجله وعن حبـه لاخوانه فى الكنائس الشرقية والذى من أجلهم يناضل لتحريرهم • ونظـرا لأن أوربان الثانى كان يرى أن الحرب الصليبية مرتبطة بهدنة الله التى حاولت الكنيسة فرضها لتحقيق نوع ما من السلام فى فرنسا ، لذلك اكد على الاختلاف بين الفارس الضال القديم الذى كان يتنازع مع جيرانه وبين الفارس الجديد وهو الذى يقاتل من اجل قضية نبيلة • «واعلن أوربان الثانى ـ كما يقال ـ والآن يا من أصبحتم جنود المسيح ، وكنتم منذ وقت ليس ببعيد جمـــاعة من اللصوص • والآن يا من تقاتلون البرابرة قتالا شرعيا ، وقد كنتم من قبل تقاتلون اخوتكم واقاربكم •• ويا من كنتم أعداء للرب ، والآن اصبحتم احبــابه • »

ان الفكرة المعروضة هنا ليست جديدة ، وانما تاثيرها على جمهـــور المستمعين تم التاكيد عليه عندما عمل المبشرون على تكراره لمدة قرن . وركز القديس برنارد تفكيره على هذا الموضوع . ومن وجهة نظره ارتكب الفـارس القديم جريمة قتل سواء عاش أم مات او انتصر أو انهزم . أما الفارس الجديد فلم يقتل سوى شريرا . « الى متى ايها الرجال ستظلون تسفكون الدم المسيحى ؟ والى متى ستواصلون الحرب فيما بينكم ؟ انكم تهاجمون بعضكم بعضا ، وتقتلون بعضكم بعضا ، وتموتون بأيدي بعضكم بعضا . وما هذه الرغبة الملحة للقسوة والوحشية التى تصدر عنكم ؟ ضعوا حدا لهذه الحرب على الفور لأنها ليست قتالا وانما حماقة . وعلى ذلك فتعريض الروح والدم للخطر عمل لا علاقة له بالشجاعة وهو مثير للاشمئزاز ، وهو عمل لا ينطوى على شجاعة وانما يعبر عن حماقة . والآن ايها الجنود العظام ، يا رجال الحرب ، لديكم قضية للدفاع عنها دون خطورة على أرواحكم ، وهى قضـية حينما ينتصر المرء فيها ينال المجد ، واذا ما قدر له الموت من اجلها يحقـق كسبا ما بعده كسب » .

لقد حارب فرسان المسيح تكفيرا عن خطاياهم وكوسيلة لخلاصهم . واعتاد هؤلاء الفرسان ان يكيفوا أنفسهم مع مستويات السلوك والملبس فيما يتناسب مع اعضاء جيش الرب . ومنذ سنة ١١٤٥ م فصاعدا تضمنت القرارات البابوية والعلمانية المتعلقة بالمقاتلين فى الحملات الصليبية مما عرف بفقرات الانفاق التى تطلبت البساطة فى الملبس والاعتدال فى الحياة اليومية .

« واذا ما قدر للصليبيين الانحدار التدريجى فى الخطيئة فى اى وقت فانهم سينهضون مرة ثانية بفضل التوبة الصادقة ، وبفضل التواضع فى السر والعلن ، والالتزام بالاعتدال فى الملبس والمأكل ، وتجنب المنـــازعات والحسد كلية ، والتخلص من الحقد والغضب الداخلى . وهكذا فالتحسن بالأسلحة الروحية والمادية ، يمكنهم من محاربة العدو ، وهم اكثر ثقة فى العقيدة ، وهم غير معتمدين على قوتهم فحسب وانما كلهم ثقة فى القوة الالهية » .

وورد فى العظات والكتب الدينية والحوليات تذكرة لكل المشاركين

فى الحملات الصليبية بأن الموت للمشارك هو الاستشهاد بعينه • وقدم الدعاة للمشاركة فى الحملات الصليبية مثل القديس برنارد St Bernard بالتذكير باستمرار بامكانية دخول الجنة فورا • « تقدموا فى أمن وسلام وادحروا أعداء صليب المسيح دون خوف ، واثقين من أن الموت أو الحياة لا يمكنهما ابعادكما عن محبة الله الموجودة فى المسيح عيسى •• يا له من مجد وسعادة كبرى لمن يعد من المعركة محاطا باكليل الانتصار ! ويا له من سعادة يتمتع بها أولئك الذين يموتون كشهداء فى المعركة ! أيها البطل الرياضى القوى البنية الشجاع لك أن تبتهج اذا ما قدر لك البقاء حيا وكنت المنتصر باسم المسيح ، لكن سعادتك ستكون أكثر بكثير اذا ما قدر لك الموت والانتقال الى رحاب الرب • ان الموت يتيح خيرا كثيرا ومجدا ومفخرة • واذا كان هؤلاء الذين يموتون وهم على دين المسيح ينعمون بالسعادة الروحية الأبدية فما بالك من هؤلاء الذين يموتون من أجل المسيح ! » •

لذلك فالحرب الصليبية ينطبق عليها مبدأ الحرب الحتمية التى كانت مهمتها قائمة على استرداد الأراضى التى ضاعت من أيدى المسيحيين والدفاع عنهم • لكن الحروب الصليبية باعتبارها حرب مقدسة فان سببها يرتبط بالكنيسة ، وبالعالم المسيحى ، باعتبارهما كيانا سياسيا واحدا ، وترتبط بالمسيح ملك الدولة المسيحية العالمية • وليس من المدهش أن الحرب الصليبية كان ينظر اليها على انها وسيلة لخلاص أولئك الذين يشاركون فيها ، الذين يقومون بواجبهم من اجل المسيح كما كانوا يفعلون من أجل ملوكهم الدنيويين وسادتهم الاقطاعيين •

٣ ـ السـلطة الشرعية

موافقة البـابوية :

واجه المسيحيون مشكلة التوفيق بين مطالب الفرد الخاصة بالمحبة وبين الحاجة الواضحة لاستخدام القوة فى عالم تسوده الآثام • وبرهنت استجابة القديس أوغسطين St Augustine على أنها تحظى بالقبول بصفة عامة • أن الحرب العامة • وهى المختلفة تماما عن أعمال العنف الشخصـية ، لابد لها من الحصول على موافقة سلطة حكومية • ومن المنطقى أن الحرب الحتمية لابد أن يصدر قرارها حاكم له سلطة من بينها حق اعلان الحرب • والفرق بين الحروب الصليبية والحروب الحتمية هى أن الحروب الصليبية يجيزها البابا بنفسه وليس الامبراطور أو الملك ، وفى تلك الحرب الصليبية ينعم المشاركون فيها بالغفران الكنسى Indulgence ، وهذا الغفـران الكنسى من سلطة البابا فقط •

وقام اثنان من البابوات بوضع الطريقة التى توصل اليها البابوات عند اعلان الحـرب الصليبية : أولهما البـابا أوربان الثانى Urban II الذى كان له السبق فى ذلك عندما دعا الى الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٥ م ، وثانيهما البابا أوجينيوس الثالث Eugenius III ، الذى أصدر أول منشور بابوى حقيقى عندما دعا للحملة الصليبية الثانيه • ومنهما كانت الجهـود التى قدمها البابا جريجورى السابع Gregory VII بشأن الأفكار الصليبية ـ وسوف أشير الى هذه المسالة فيما بعد ـ فان المبادرة التى تلت استغاثة الوفد البيزنطى عند انعقاد مجمع بياسينز Piacenza كانت من بنات أفكار أوربان الثانى نفسه • وكثير من العناصر الموجودة فى الكتابات المتعلقـة بزيارة أوربان الثانى لفرنسا ـ المعايير الداعية لشن حرب وبخاصة حـرب مقدسة ، وزيارة الأراضى المقدسة ، ونذر الحجاج ، وهدنة الله ، ومفهـوم الامبراطورية المسيحية ـ كلها كانت قديمة ، ولكنه هو الذى صهرها جميعـا فى بوتقة واحدة فيما عرف على نحو مميز باسم حملة صليبية ، معطيـا الحملة العسكرية أساساً نظريا قدر له أن يثبت وجوده لفترة طويلة من الوقت على نحو رائع •.وكما عبر أحد كتاب الحوليات ، « كان أوربان الثانى صاحب الفكرة الأولى للحملة الصليبية » • واعتبر هذا المؤرخ أنه صاحب الحملة

ذاتهـــا ٠ ، اننـــا قـــد عينـــا ابننـــا المحبـــوب ادهيمـــار اسقف لو بوى Adhemer Bishop of Le Puy مكاننا فى هذه الرحلة للاراضى المقدسة وفى هذه المهمة الشاقة ، ٠ وفى سبتمبر ١٠٩٨ م عبر قادة الحملة الصليبية فى خطاب للبابا اوربان الثانى بكل وضوح وصراحة عن قبولهم للرياســـة البابوية عليهم ٠ وقالوا : « والآن نطلب منك يا والدنا الروحى ، الذى قـــرر هذه الرحلة ، وجعلنا جميعا نغادر أوطاننا بفضل عظاتك الدينية ٠٠ ان تاتى الينا وتختار من تشاء للحضور معك ٠٠ » وواصلوا فى كتاباتهم للبـــابا ما هو أفضل مما تقدم ، « انك اب والرئيس الأعلى للمسيحية ويجب عليك الحضور الى المدينة العاصمة والأولى المرتبطة بالمسيح وان تنهى بنفســـك الحرب التى ارتبطت باسمك ٠٠ واذا ما اتيت الينا واكملت معنا رحلتنا التى قد بدات بأمرك فان العالم بأسره سوف يدين لك بالولاء » ٠

ان نصف القرن الذى يفصل بين الحمـــلة الصليبية الأولى والحملة الصليبية الثانية كان بمثابة فترة كتب فيها كتاب التاريخ والحوليات قصـــة نجاح عملية اوربان الثانى العسكرية ، فقد تمكن الرجال من زيارة الأراضى المقدسة ، أو على الأقل نظروا بكل فخر وورع الى مدينة بيت المقدس التى صارت فى أيدى اللاتين ، وحلفاء وخلفاء أوربان مساعدة الجالية اللاتينيـــة الجديدة فى الأراضى المقدسة ، وبدا القديس برنارد St Bernard فى تطوير نظرية الحرب الصليبية فى مواعظه الدينية وكتاباته ٠ غير أن المسلمين اقتحموا مدينة الرها فى شمال بلاد مابين النهرين ، عشية عيد الميلاد (١١٤٤ م) ، وهى عاصمة أول امارة مسيحية لاتينية اقامها الصليبيون فى أعقاب الحمـــــلة الصليبية الأولى ٠ واحدث نبا الكارثة حالة من الغضب الشديد فى غرب أوربا ، فهى أول هزيمة حقيقية يتعرض لها اللاتين فى المشرق الاســـلامى ، بيد أن ما حدث بعد ذلك ما زال غامضا الى حد ما ٠ وفى أول ديسمبر ١١٤٥م اصدر البابا أوجينيوس الثالث منشورا بابويا ، وعلى الرغم من انه كان موجها للملك لويس السابع ، وطبقة النبلاء فى فرنسا فليس هناك دليل على أن هذا المنشور البابوى تمت اذاعته ونشره فى فرنسا ٠ وفى الوقت نفسه كان لويس السابع يخطط من قبل لقيادة حملة فرنسية الى الأراضى المقدسة ، وربمـــا اصدر البابا منشورا بابويا لأنه قد سمع عن ذلك ، لأن لويس السابع لم يكن يبدو عليه أن يتصور طلب الموافقة البابوية عندما أعلن عن فكرته ابان الاجتماع

الذى انعقد فى بورج Bourge للاحتفال بعيد الميلاد · ولقى اقتراحه استجابة ضعيفة فى الوقت الذى ابدى شوجر من سانت دينيس Suger of S.Denis ، مستشاره الأول ، واعتراضا على هذا الاقتراح · واجل لويس السابع القرار النهائى حتى عيد الفصح التالى وطلب المشورة من القديس برنارد St Bernard ، الذى اعلن انه لن يقرر اى شىء دون استشارة البابا · وكانت النتيجة ان اصدر البابا منشورا بابويا للمرة الثانية فى اول مارس ١١٤٦ م به تغيير طفيف فى النص ، وهو لا يعنينا هنا ·

واظهرت قصة اعلان المنشور البابوى الجديد أمرين · الأول هو أن المبادرة لم تكن دائما من مسئولية البابوية · وكان لويس السابع أحد القادة العديدين الذين قاموا بعمليات عسكرية كبرى وصغرى (ربما اشهر هؤلاء القادة لويس التاسع الشهير) وهما من بين الذين اقسموا على المشاركة فى حروب صليبية دون الانتظار للحصول على تعليمات من روما · أما الأمر الثانى فهو أنه مهما كانت الشخصية العلمانية التى كانت مسئولة عن الخطوة الأولى ، فان الموافقة البابوية لابد وانها كانت اساسية فى مرحلة ما ، وذلك فى العمليات الكبرى والصغرى والتى تزايد عددها بعد عام ١٢٥٠م، ولابد لها من مساندة التاييد البابوى ، والتمتع بالامتيازات التى تجيزها الخطابات البابوية ·

ويمكن من اول نظرة ملاحظة استثناء فى كتابات بعض علماء القانون الكنسى عن الحروب الصليبية ضد النصارى الذين يخالفون تعاليم الكنيسة الغربية heretics · وحاولوا اثبات أن الحكام كانوا قد حصلوا على سلطة عامة من مجمع لاتيران the Fourth Lateran Council ، ومن ثم فليس هناك حاجة لأن يستصدروا امرا بابويا خاصا لمحاربة الخارجين على تعاليم الكنيسة الغربية · غير انه لابد للمرء من التاكد على ان هذا كان بناء على أن السلطة البابوية كانت قد أعطت من قبل موافقتها على شن حرب ضد تلك الفئة · وذكر المنشور البابوى الصادر فى أول مارس ١١٤٦ م كيف أن البابا اوربان الثانى ، « كان قد دعا أبناء الكنيسة الرومانية المقدسة من مناطق مختلفة من العالم من اجل تحرير الكنيسة الشرقية » · واستمر

المنشور يقول ، « وهكذا فباسم الرب نناشدكم ، ونطلب منكم ، ونامركم جميعا ، وفى مقابل ذلك نمنحكم غفران خطاياكم ، عندما تلبون نداء الله ، ولا سيما الأقوياء منكم والنبلاء وتجهزوا انفسكم بكل عناصر القوة لمقاومة الجماهير الغفيرة من اعداء النصرانية » ٠

وأوجد المنشور البابوى الصادر فى أول مارس ١١٤٦ م الصيغة التى يمكن استخدامها عند اعلان الحرب الصليبية منذ ذلك الحين فصاعدا ٠ على أن الطريقة التى صيغت بها الخطابات البابوية خضعت لسنة التطور على مر السنين ، واصبح اسلوب تلك الخطابات اكثر تألقا وعمقا ، وكانت خير دليل على تقدم افكار الحروب الصليبية ، بيد أنها سارت على نمط المنشور البابوى الصادر فى أول مارس ١١٤٦ م بشأن وجود اقسام وورد بها وصف للظروف التى دعت لشن حرب صليبية جديدة ٠ ووردت بها أساليب المناشدة لمشاركة الصليبيين وقائمة بالمزايا العديدة التى ينعم بها كل مشارك أو مساهم فى تلك الحرب ٠ واشهرهم جميعا كانت الأوامر البابوية التى اصدرها البابا انوسنت الثالث Innocent III اعوام ١١٩٨ م ، ١٢٠٨ م ، ١٢١٣ م ٠ ويضاف اليها القانون الشهير الذى صدر عن مجمع اللاتيران الرابع the Fourth Lateran Council (١٢١٥ م) والذى احتوى على اسلوب رائع وخيال خصب ٠ ومن الناحية العملية كانت كل كلمة واضحة غاية الوضوح ، « بيد أن اولئك الذين يرفضون المشاركة ، اذا وجد مثلهم الذين لديهم عقوق تجاه المسيح ربنا ٠ فاننا نقرر بكل حزم وعزم نيابة عن بطرس الرسول أنهم سيحاسبون على ذلك فى حضرة القاضى العادل فى يوم القيامة حيث الحساب العسير » ٠

وبرغم أن النصرانية تعلم أن كل البشر سوف يحاسبون أمام الله ويخضعون لمعيار موضوعى خاص بالقيم الموجودة فى قوانينهم الدينية ، فانها تقسم المهام الحكومية فى هذا العالم الى مجالين مختلفين ، المجال الدينى والمجال الدنيوى ٠ على أن هذا الفصل والتمييز فى المهام كان موجودا منذ أوائل عهد الحكومة المسيحية برغم وجود فترات كانت فيها الفروق غير واضحة أو فى بعض الأنماط الحضارية ـ الامبراطورية الرومانية المتأخرة وبابوية القرن الثالث عشر ، والحكومة الانجليزية ـ يقال انها كانت الحدود

متداخلة . وعلى الرغم من ذلك ، وبسبب الدعاوى البابوية لم يحـدث أن برز بوضوح الفرق بين مجالات النشاط الدينى والدنيوى مثلما كان عليـه الحال فى منتصف العصور الوسطى .

كان الحرب نشاطا دنيويا ، وفى التاريخ المسيحى كان واجب الحـكام والأباطرة والملوك مواصلة القضاء الجسدى على كل المعتنقية لأفكار تتعارض مع تعاليم الكنيسة heresy . وحينئذ كيف يستطيع كاهن مثل البـابا أن يرخص بحدوث مشروع علمانى ؟ وسوف لن نفهم الدور البابوى فى الحركة الصليبية بدون أن ندرك أولا المفارقة the parado أن البابوات فى الوقت نفسه اكدوا على ضرورة أن تدير الكنيسة شئونها الخاصة بها دون تدخـل من سيطرة الحكام العلمانيين وانهم كانت لهم بعض حدود السلطة فيمـا يتعلق بالشئون الدنيوية ، كما كان يحدث مع معظم الكهنة المسئولين فى مملكة المسـيح الأرضية .

وظهرت تلك التناقضات ابان الصراع على تقليد المناصب الدينية التى كانت قد بدات كنزاع حول النظام الكنسى غير ان حدة هذا الخلاف تزايدت حتى أنه فى عامى ١٠٧٦ م و ١٠٨٠م قام البابا جريجورى السابع باصـدار قرار عزل هنرى الخامس ملك المانيا . وفى محاولة عزل انسان فى وظيفـة مدنية لا تقبل الجدل يكون البابا قد خطا عبر الحدود التى فصلت بين السـلطة الدينية والسلطة المدنية . وفى الحقيقة كان البابوات فى الماضى قد أعلنـوا تفوقهم على الأباطرة ، وان كانت جذور السلطة الامبراطورية فى الغـرب تكمن فى تتويج البابا للامبراطور فى عيد ميلاد ٨٠٠ م ، ومنذ ذلك التـاريخ صار على الأباطرة واجبات جعلت منهم مجرد موظفين فى الكنيسة . وعلاوة على ذلك كانت هناك حوادث سابقة مماثلة وحقيقية بشأن تدخل البابوية فى ممارسات الحكومة الملكية غير السلطة المشكوك فيها التى مارسها البـابا زكريا عندما عزل شلدريك childeric ملك الفرنجة فى منتصف القـرن الثامن الميلادى . وكان قيام البابا جريجورى السابع بعزل هنرى الرابع ملك المانيا قمة التطرف الدينى الذى يمكن القول انه فى مقدمة النظرية ـ وكان هذا العمل متقدما حتى أن المعاصرين له لم يفهموا هذا الاجراء ولم يدركـوه ـ وفى الوقت نفسه حدثت نكسة عندما قام هنرى الرابع نفسه بطرد جريجورى

السابع من روما بالقوة ، وفى ١٠٨٥ م ، مات جريجورى السابع فى المنفى · وخلفه البابا فيكتور الثالث الذى جاء بعده أوربان الثانى عام ١٠٨٨ م ، والذى كان من انصار سياسة جريجورى السابع بكل قوة ·

واستمرت الصراعات الكبرى مع هنرى الرابع ملك المانيا وعندما بدأ أوربان الثانى فترة توليه منصب البابوية اعترف به قليل من الأساقفة الألمان، وكانت اجزاء كثيرة من المانيا ، وشمال ايطاليا ووسطها ، بما فى ذلك مدينة روما تحت سيطرة البابا الزائف كليمنت الثالث · وحاول أوربان الثانى ايجاد سنيد له فى الغرب وفى بيزنطة ·

وبحلول ١٠٩٤ م كانت روما تحت سيطرة البابا أوربان الثانى ، وبدأ الملك الألمانى يفقد مركزه فى ايطاليا ، وفى ١٠٩٥ م وعندما ذهب البابا الى فرنسا بعد مجمع بيسنزا Piacenza ، ثار كونراد Conrad ضد والده هنرى الرابع واصبح تابعا للبابا أوربان الثانى فى كريمونا Cremona وفى مقابل هذه الخلفية كانت لدعوته للحملة الصليبية الأولى أهمية سياسية· وتلك كانت خطوة مهمة فى الخلاف حول تقليد المناصب الدينية Investiture Contest ، لأنه عندما طلب من جيش المسيح أن يسترد الأراضى المسيحية كان أوربان الثانى فى الحقيقة يتخذ لنفسه السلطة الامبراطورية فى ادارة الشئون الدفاعية عن الجمهورية المسيحية فى وقت لم يعترف البابا بهنرى الرابع كامبراطور · لقد قام البابا جريجورى السابع بعزل ملك ، وأخذ أوربان الثانى على عاتقه مهمة الحاكم الدنيوى · وبهذه التصرفات بدأ البابوات يتخذون مكانا خاصا لأنفسهم فى قمة السلطتين الدينية والدنيوية ·

ومرت فترة من الوقت امام المفكرين السياسيين ورجال القانون الكنسى ليدركوا الآثار المستخلصة من عزل هنرى الرابع والدعوة للحملة الصليبية الأولى وهى التى انذرت بوجود ما عرف باسم الحكومة الملكية البابوية Papal Monarchy · ومنذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ادعى البابا انه ممثل شخصى Vicar للمسيح ، وهو نائب خاص يختلف عن أى حاكم دنيوى آخر ، وهو قاضى عادل فى لكل شىء له سلطات كاملة ، وموقفه متوسط

بين الله والشعب وهرمى السلطتين الكنسية والدنيوية · بيد أنه حتى مع التطور الكامل للنظرية كانت سلطات البابوات اقل من مطلقة · فاولا ، ظلت الطبيعة التعاونية للعلاقة بين السلطة البابوية والسلطة الدنيوية معترفا بها : فكان للملوك نصيبهم الخاص بهم للحكومة · ثانيا ، كان فى استطاعة الحكام العلمانيين دائما التصرف فى أمور ربما لم يكن فى استطاعة البابوات البت فيها · ثالثا ، لم يكن لدى البابوات الوسيلة فى وضع الأحكام العلمانية موضع التنفيذ حتى لو ارادوا ذلك ، لأنهم لم تكن لديهم الوسيلة الفعالة فى فرض الأحكام العلمانية · ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح اذا ما قارن الانسان حقيقة حكومتهم الكنسية مع ظل حكومتهم الدنيوية · واذا كانت ثمة ميزة للبابوية فى منتصف العصور الوسطى ، فانها الطريقة التى حققت بها سيطرة مباشرة على الجهاز الادارى للكنيسة وعملت على تطويره · وشهدت الفترة تطورا كبيرا فى ظل الجهاز الحكومى : من الموظفين والمحاكم ، والقانون الكنسى ، وتبعية الجميع · واذا ما نظرنا الى علاقة البابوات بالعالم لا نجد مثل ذلك الجهاز · واستطاع البابا انوسنت الرابع عزل فردريك الثانى ، الحاكم الحرون ، بيد أن البابا لم يتمكن أن يضع قراره موضع التنفيذ بعد الرجوع للجهاز الكنسى فقط ، ربما بعد تهديد المتعاطفين مع فردريك الثانى بالمعقوبة الكنسية مثل الحرمان الكنسى ، أو أنه فى استطاعته شن حرب صليبية ضد فردريك ·

وليس من المدهش ان البابوية كان يجب عليها البحث عن وسيلة يمكن من خلالها أن يكون العالم الدنيوى قادرا على أن يكيف نفسه وفقا لنظمها الادارى برغم اختلافات ذلك العالم الدنيوى عنها ، ومثال على ذلك كان القرارالذى أصدره انوسنت الثالث والذى برر فيه التدخل البابوى فى الشئون الدينية بسبب الخطايا الموجودة · وكانت ثمة اشارة الى أنه طالما من الممكن وجود خطأ فى كل تصرف انسانى تقريبا لذلك أعطى هذا الأمر للبابا تصريحا قويا للتدخل فى أى حالة ارادها أينما كانت ومهما كانت · ولكن الأكثر اهمية من ذلك بكثير ـ الواقع قد أدى ذلك الى وجود مشاكل التفسير فيما بعد ـ وهى النتائج القانونية لتحويل الدعاوى للسلطات القضائية البابوية ·

وكانت الحرب الصليبية مثالا آخر للطريقة نفسها · اذا كان الفــرد الصليبى مقاتلا ، بيد انه كان من نوع خاص ، لأنه كان قد اخذ على نفســه عهدا ، وهذا امر دينى ، وهذا لعهد نتج عنه انه اصبح فى حالة احد الحجاج الى الأماكن المقدسة ، ونتيجة لذلك اصبح تابعا للكنيسة بصفة مؤقتة كمـا يحدث لأى حاج ، كما كان خاضعا للمحاكم الكنسية · ولذلك كان للنــذر الصليبى اهمية والتى كانت واضحة بالتاكيد فى منتصف القرن الثانى عشر · وبالطبع كانت المحاكم الدنيوية ممانعة عن الموافقة على الانتقاص من حقوقها القضائية ، وقد تمت الموافقة على انه يجب على الصليبيين الوقوف أمام تلك المحاكم فى حالات الشروط الاقطاعية والميراث ، والجرائز الكبرى · واستطاع اوربان الثانى أن يوجد الحالات التى عن طريقها يمكن أن يكون له ســلطة على أى حملة صليبية والادارة القائمة وتطبيق الاجراءات التى تنظم جهاز الكنيسة ، وذلك كله بعد أن أوجد القسم والنذر ومنح المشارك فى الحمــلة الصليبية حالة الحاج بالاضافة الى غفران ما تقدم من ذنبه ودخول الجنــة بغير حساب ·

وهناك وجه آخر لهذا ، لأن كل شيء ، بما فى ذلك التبعية فى هــذا الموضوع التى كانت لادارة الجهاز الكنسى اعتمادا على القسم والنذر الذى اخذه الصليبيون على انفسهم · وعندما اعلن أى بابا شن حرب صليبية ، لم يكن هذا اكثر من دعوة للنصارى لأخذ العهد على انفسهم بالمشاركة فيهـا وكان هذا بمحض ارادتهم · وربما كان فى استطاعة البابا تهديدهم بنــار جهنم ، غير انه لم يكن فى استطاعته اجبارهم على أن يقسموا على المشاركة فى الحملة الصليبية كما انه لم يكن فى مقدرته معاقبتهم فى حالة رفضهم · ولا يستطيع البابا أن يفعل شيئا اعلى غير رغبتهم · ولذلك ربما بذل اكثر من بابا جهودا من اجل الدعوة لحملة صليبية واحدة · وفى غياب مبادرة أى حاكم علمانى ، كانت هناك استجابة كافية لدعوة البابوية من اجل شن حرب صليبية ، وكانت ثمة فترات وبخاصة الفترة ما بين ١١٥٠ م الى ١١٨٧ م قبل القضاء على الجيش المسيحى فى موقعة حطين وضياع مدينة بيت المقدس من أيدى الصليبيين حيث استيقظ الغرب الأوربى ، فى الوقت الذى حاولت فيه البابوية وتعاون معها القادة المسيحيون مرارا وتكرارا من أجل حشــد الجيوش لنجدة فلسطين · ولكى نفسر المزايا لأى استجابة ، فلابد من أن يسود

السلام اوربا ، وان يتم تعيين المندوبين الذين يتولون الاعلان عن دعـوة البابا لحرب صليبية ، وتنظيم عملية تجنيد المتطوعين ، والتمويل المـادى وتزداد الأهمية بمرور الوقت ٠

السلام فى العالم المسيحى :

ارتبط التراث المألوف للجمهورية المسيحية بالسلام ٠ وبالنسبة للقديس اوغسطين St. Augustine الذى قامت على كتاباته فكرة الدولة المسيحية العالمية كان السلام سمة مميزة للدولة الحقيقية ، مدينة الله the City of God وكانت الحرب الصليبية ذاتها ينظر اليها منذ البداية على انها وسـيلة للسلام ، ومرتبطة ارتباطا وثيقا بهدنة الله ٠ ومن الواضح أن البابا اوربان الثانى كان يأمل توجيه ميل الفرسان الفرنسيين الشديد للقتال عبر البحار ، وبذلك يجلب الهدوء الى سكان الريف الفرنسى ٠ وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كان هناك اعتقاد بضرورة وجود السلام فى أوربا ووحـدة العالم المسيحى من أجل نجاح اى حملة صليبية ٠ وكانت هناك دعـوات من اجل عقد الهدنة واقامة الوحدة فى خطابات البابوية مرارا وتكرارا ٠ على أن المنافسة المستمرة بين ملوك فرنسا وانجلترا حالت دون حشد جيش لشن حملة صليبية فى السبعينيات والثمانينيات من القرن الثانى عشر الميلادى ٠ ووصلت الدعوة لشن حرب صليبية الى الذروة فى عهد البابا انوسنت الثالث٠ وبالنسبة اليه كانت حالة الشقاق فى العالم المسيحى امرا يثير الخـزى والعار ، وبعد ١٢٠٤ م اعتقد أن اصلاح الكنيسة بالاستيلاء على القسطنطينية٠ وشعر انوسنت الثالث بضراوة المنازعات السياسية فى غرب أوربا ، ودعا الى شن حرب صـليبية ضـد ماركوارد من أنويلر Markward of Anweiler لاعتراضه سبيل حملة صليبية وتهديد الآخرين بنفس المصير ٠ وفى مقدمة المنشور البابوى الصادر ١١٩٨ م الذى أعلن فيه عن الحملة الصليبية الرابعة صب البابا انوسنت الثالث جم غضبه وبسخط شديد ، وبأسلوب لم يحدث من قبل منذ عهد القديس برنارد St. Bernard « والواقع الآن ٠٠٠ فى الوقت الذى يطارد حكامنا بعضهم البعض وهم فى حالة عداء مستحكم ، وفى الوقت الذى يتصارع فيه كل فرد منهم لتبرير ما يفعله من الأذى والضرر ، بعد معاناته على يدى غيره ، ولا يوجد أحد منهم قد حركته المعاناة التى تعرض لها المسيح

... ان أعداء المسيح يجرحون مشاعرنا ، ويقولون ، « أين الهكم الذى لم يسطع تحرير نفسه أو تخليصكم من أيدينا ؟ » .

ان الدعوة التى كررها ، البابوات من أجل السلام ووحدة العالم المسيحى لم يقدر لها النجاح أبدا، والواقع أن الفشل النهائى للصليبيين . وعدم مقدرتهم السيطرة على الأراضى المقدسة يرجع الى حالة النفور والكراهية المتزايدة فى أواخر القرن الثالث عشر بين حكام غرب أوربا الى حد ما ، حيث تورطوا بشدة فى المنافسات فيما بينهم . وفى هذا مبالغة للموقف الحقيقى ، وان كان بحلول السبعينيات من القرن الثالث عشر بدات البابوية تدرك عبث محاولة تنظيم حملة عسكرية كبرى فى وقت كانت افكار الملوك مشغولة بأمور أخرى .

الدعوة للحروب الصليبية :

بعد الحملة الصليبية الأولى لم يكن هناك اعلان بابوى كاف لتحريك أوربا . فكان لابد أن يتبع المنشورات البابوية زيارات شخصية ، واعلان مستمر ، وعرفت هذه العملية بالدعوة لحرب الصليب . ومن المهم بجلاء أن البابوات يجب أن يكون لهم سيطرة على ذلك ، وعلى عملية تجميع الراغبين فى الاشتراك فى الحملة الصليبية . ومن الممكن افتراض أنهم كانوا سعداء بسبب الاستجابة الحماسية ، وحقيقى أن انوسنت الثالث وخلفائه حاولوا أن يجعلوا مهمة الدعاة للحرب الصليبية أكثر سهولة وذلك بمنح الغفران الكنسى حتى للذين يقومون بمجرد الانصات للمواعظ الدينية ، وزاد منح الغفران لجمهور المستمعين للمواعظ الدينية الخاصة بالحروب الصليبية بمرور القرن الثالث عشر الميلادى . ولكن فى الواقع كانت هناك مناسبات شديدة الضرر على روما فمثلا كانت حالة اللامبالاة فى الغرب الأوربى وهى حالة التعصب الدينى والحماسة الدينية المغرطة عند رجال الدين الذين رغب البابوات فى بقائهم فى أرض الوطن . وربما لم يكن البابا أوربان الثانى يتصور هذه الأعداد الضخمة التى يصعب حصرها والتى استجابت لخطابه الدينى فى كليرمونت ، والداعى للحرب الصليبية ، وحاول هو ومن خلفه ، ليثنوا ابناء اسبانيا من النصارى عن الذهاب للمشرق بالاقناع والبقاء فى أسبانيا حيث النضال المستمر هناك ضد المسلمين ، واحيانا لم

تكلل جهود البابوات فى ذلك بالنجاح · ولم يكن البابا أوجينيوس الثـــالث راغبا فى ان يشارك كونراد Conrad ، الألمانى فى الحملة الصليبية الثانية غير انه لم يتمكن من منعه ·

وفى سنة ١١٩٨ م يبدو أن البابا انوسنت الثالث لم تكن لديه رغبة فى مشاركة الملوك الأوربيين فى الحملة الصليبية الرابعة بعد المنازعات والمنافسات التى حدثت اثناء الحملة الصليبية الثالثة ، وكان أنوسنت الثالث محظوظا عندما لم يشعر اى ذلك بانه كان مكـرها على المشاركة فى الحمـلة الصليبية الرابعة ·

والواقع ان الدعوة للحرب الصليبية لم تسيطر عليها البابوية سيطرة كاملة · ففى منتصف العصور الوسطى ظهر كثير من كبار المبشرين الذين كان لهم مكانا مهما فى تاريخ الحروب الصليبية · وبطرس الناسك Peter the Hermit اكثرهم شهرة ، كان نشيطا من وسط فرنسا ، واقليم رانيلاند the Rhineland فى ١٠٩٥ ــ ١٠٩٦ م ، وتبعه جيش من الفقراء ، وساروا دون تبعيـــة لأحد ، وقضى الأتراك على الغالبية العظمى منهم فى غرب آسيا الصـــغرى بالرغم من أن بطرس نفسه ومن ظل معه من اتباعه لعبوا دورا مهما عنـــد انطاكية فى شمال روسيا ١٠٩٨ م · ومن بين خلفاء بطرس الناسك راهب يدعى رودولف Rudolph ، وهو راهب سسترشيانى a Cistercian Monk الذى غير نفوذه من مركز القديس برنارد St. Bernard فى اقليم الراين، فى عهد الحملة الصليبية الثانية ، وقام غـــلام يدعى نيقـــولا Nicholas بشن هجوم محزن ومثير للشفقة أطلق عليه من باب الخطا حملة الأطفـــال الصليبية ١٢١٢ م ، وكذلك رئيس البلغار ، الذى دعا الى حملة الرعاة الصليبية ١٢٥١ م · وكانت المواعظ الدينية لهؤلاء الرجال فى اطار الأفكار المسيحية المبنية على الأحلام مع التاكيد على المزايا التى سيحصل عليهـــا الفقراء الذين يميزون الحركة الشعبية التى تعمل كقوة دفع تحتية للحروب الصليبية ، والتى تتفجر على شكل هجرات جمـــاعية تجاه ارض الميعاد the Promised Land بين الفينة والفينة ، والتى يعتقد أنها جنة قاصرة على طبقة الفقراء والمعدمين ·

ومع ذلك لعب البابوات انفسهم دورا يفوق دور اى جماعة اخرى فى الدعوة للحرب الصليبية • فقد عرفنا من قبل ان البابا أوربان الثانى تبع دعوته فى مجمع كليرمونت بان جاب انحاء فرنسا الغربية والجنوبية • وفى ١٢١٥ م افتتح البابا انوسنت الثالث مجمع لاتيران الرابع بموعظة دينيه كانت متعلقة بالحرب الصليبية الى حد ما ، وفى ١٢١٦ م دعا الى حملة صليبية فى منتصف ايطاليا ، فى أورفيتو Orvieto ، كما حدث من قبل فى كليرمونت منذ ١٢٠ سنة مضت ، وكانت الجماهير كثيرة لدرجة انه خاطب الجماهير فى العراء برغم هطول الأمطار بغزارة • وفى ١٢٧٤ م اشار البابا جريجورى العاشر الى الحملة الصليبية فى ثلاث مواعظ على الأقل فى مجمع ليون Lyons الثانى • غير أن البابوات لم يتمكنوا من المشاركة فى مواقف شخصية كثيرة برغم مسئولياتهم وتعهداتهم ، وكان عليهم أن يعتمدوا على أتباعهم من الأساقفة المحليين • وفى كليرمونت طالب البابا اوربان الثانى الأساقفة بالدعوة للحرب الصليبية ، وفى ديسمبر ١٠٩٩ م طلب البابا بسكال الثانى الأساقفة الفرنسيين أن يشجعوا الفرسان على الذهاب الى الأراضى المقدسة ، وأن يجبروا هؤلاء الذين اقسموا على المشاركة وأن يبادروا بالذهاب ، وهناك خطاب ما زال موجودا كتبه رئيس اساقفة ريمز Rheims الى أحد الأساقفة المساعدين a Suragan ابلغه فيه عن سقوط مدينة بيت المقدس فى ايدى الصليبيين ، وامره أن يؤدى كل الأبرشيات صلوات بمناسبة الانتصار ، وأن يصوموا ويجمعوا الصدقات • وعلى امتداد فترة الحروب الصليبية تدفق سيل من الخطابات من الادارة البابوية Curia تأمر فيها الأساقفة للدعوة للحرب الصليبية بانفسهم ، أو أن يقدموا المساعدة للمندوبين الذين يرسلهم البابوات للقيام بتلك المهمة ، ويبدو انه بحلول الثمانينيات من القرن الثانى عشر الميلادى ، قام الأساقفة بمساعدة رجال الكهنة الصغار بتطوير طريقة منظمة الى حد ما من اجل الدعوة للحرب الصليبية ، وكان ذلك في انجلترا على الأقل •

واستخدمت البابوية مبعوثين خصوصيين ايضا • ففى فبراير ١٠٩٦ م منح البابا أوربان الثانى تفويضا الى روبرت من اربريسيل Robert of Arbrissel للدعوة للحرب الصليبية ، فى وادى اللوار Loire ، وامر جيرينتو Gerento

رئيس دير القـــديس بينين من ديجـــو St Benigne of Dijon للاعلان عن الحرب الصليبية فى نورماندى Normandy وفى انجلترا • وفى ١١٠٠ م ارسل البابا بسكال الثانى اثنين من الكرادلة الى فرنسا اللذان عقدا مجمعا فى بواتيه Poitiers وشجعا النصارى على الانضمام للحرب الصليبيـة فى المشرق الاسلامى • وكان القديس برنارد St Bernard من اشـــهر المبعوثين بمعرفة البابا اوجينيوس الثالث Eugenius III للدعوة للحمـــلة الصليبية الثانية فى فرنسا ، وكان مجبرا بسبب نجاح رودولف Rudolph لد انشطته الى المانيا • وعلى ان شروط تفويض برنارد غير واضحة : ومن المؤكد انه لم يكن ممثلا شخصيا للبابا ، ومن ثم لم يكن لديه ســـلطات للتصرف فى هذا الموضوع كما لو كان البابا نفسه ، على الرغم من نجـــاح دعوته الصليبية ، وقوة شخصيته ، والمكانة التى كان يحظى بهـا عنــد اوجينيوس • على ان اول استخدام للممثلين الشخصيين للبابوات من اجل الدعوة للحرب الصليبية ظهروا فى ١١٧٣ ـ ١١٧٤ م ومنذ ذلك التـــاريخ اصبح من المعتاد استخدامهم •

وحدث تطور جديد فى فترة تولى انوسنت الثالث منصب البابوية • فقد قام بجمع استخدام المبعوثين الخصوصيين ورجال الدين المسيحيين ، وذلك بان عين رجال كنيسة محليين كنواب له • وفى ١١٩٨ م عندما دعا البـــابا انوسنت الثالث للحملة الصليبية الرابعة ارسل ممثلا شخصيا له الى فرنسا وسمح للداعية المشهور فولك من نيولى Fulk of Neuilly ، واختار ايضا اثنين من الرجال فى كل اقليم من بين كبار رجال الدين للدعوة للحـــرب الصليبية بالاضافة الى عضو من جماعة الداوية a Templar ، واخر من جماعة الاسبتارية Hospitaller وفى ١٢٠٨ م حاول البابا انوسنت الثالث، على الأقل فى فرنسا ولومباردى Lombardy دون توفيق ، أن يجهز حملة صليبية جديدة ، وعزم على استخدام النظام المتبع نفسه ، غير انه ســـنة ١٢١٣ م استخدم نظاما اكثر تطورا • وباشر بنفسه على الدعوة للحـــرب الصليبية فى ايطاليا ، اما فى ظل اقليم من العالم المسيحى تقريبا فقد عين مجموعة صغيرة من الرجال ـ واختلفت الاعداد اختلافا طفيفا ـ بعضهم كان من الأساقفة • واشار انوسنت الثالث اليهم بالمنفذين ، ومعهم سلطان الممثلين

الشخصيين فى هذا الموضوع ، وأكد على ضرورة أن يعيشوا بتواضع وأن يصحبهم عدد قليل من الخدم والعبيد ، ويجب عليهم أن يباشروا الدعـــوة للحرب الصليبية ، ويتلقون النذور ، واذا كانت هناك هبة من اجل الأرض المقدسة ، فيجب تجميعها فى احد الأديرة ، وفى استطاعتهم تعيين وكلاء عنهم فى كل أبرشية • وتم اختيار اربعة فى ليج Liege وكولون Cologne ونصح البابا اسقف راتيسبون تعيين وكلاء فى مقدرتهم الاجتماع بالجماهير التى تعيش فى أبرشيتين او ثلاثة لمخاطبتهم فى حالة عدم مقدرتهم التعـامل معهم على انفراد • وربما كان أوليفر Oliver اكثر الدعاة نجاحا فى كولون Cologne الذى كانت مواعظه الدينية تثير الحماس الشديد فى نفـــوس مستمعيه • اما المناطق التى كانت خـــارج الخطـــة فهى المجر Hungary حيث كان كل أسقف بها مكلفا بالدعوة للحرب الصليبية ، وسوريا اللاتينيـة وفلسطين فكان هناك جيمز من فترى James of Vitry الأسقف الجـــديد لمدينة عكا ، واشهر داعية فى عصره ، أما فى الدنمرك والسويد فقـــد قام رئيس الأساقفة لوند Lund الممثل الشخصى للبابا بالدعوة للحـــرب الصليبية بمساعدة رئيس اساقفة أوبسالا Uppsala ، اما فى فرنسا فكان بها من يمثل البابا شخصيا اولهم كان روبرت من كورك Robert of Courcon وفيما بعد رئيس الأساقفة سيمون من صور Simon of Tyre كانوا هنـاك فى فرنسا • وكان الأساقفة يقومون بانفسهم بالدعوة احيانا او يختارون من يقم بذلك ، أو مجموعات من رجال الدين مثل جماعتى الفرنسسكان والدومينكان Franciscans and Dominicans الثلاثينيات من القرن الثالث عشر الميلادى وهم الذين قاموا بالدعوة المباشرة للحرب الصليبية • ومع ذلك كان ثمـــة اتجاه لمنح الدعاة المستقلين سلطات أوسع • والأمثلة على ذلك كونراد من بورتو Conrad of Porto فى المانيا وايطاليا فى العشرينيات من القرن الثالث أودو من شاتورو Odo of Chateauroux فى الأربعينات من القـرن العاشر الميـلادى ، وأوبونو نوفيشى Ouobuono Fieschi بلاد النوريج Norway وفلاندر Flanders ، وجاسكونى Gascony ، وبريطانيا وأيرلند سـنة ١٢٦٥ م • وتمتع اتوبونو بصلاحيات تعيين الاتباع للدعاة ، والمثقفين والحياة

وكان يلقى الخطب الدينية بنفسه أحيانا ، وبصفة عامة كانت الشخصيات الحاصلة على التفويض منه هى التى تقومهم بذلك ولا سيما الرهبان الاخوان Friars .

تمويل الحروب الصليبية :

كانت الحملات الصليبية تتكلف أموالا طائلة واتجهت النفقات الى التزايد بعد ازدياد عنصر المرتزقة بها • وكانت نفقات التجهيزات ، والمؤن والمعـدات العسكرية والمواد التموينية ، والأهم من ذلك كله نظام النقل والمواصـلات ـ معظم الصليبيين سافروا بحرا ـ كانت فى غالب الأحوال ثقيلة الوطاة على المشاركين فى الحملة الصليبية ، ففى ١٢٠٢ م وجد الصليبيون انفسهم فى البندقية Venice غير قادرين تماما على دفع نفقات السفن التى ستقلهم الى المشرق الاسلامى ، والتى كانت جاهزة لاستقبال أعداد تزيد كثيرا على الأعداد الفعلية من الراغبين فى السفر فى ميناء الرحيل • وكان طبيعيا تماما أن يقوم الملوك او كبار أصحاب الاقطاعات بدفع مبالغ تشجيعية أو جزء من نفقات اتباعهم الذين عقدوا العزم على المشاركة فى الحروب الصليبية • فالتكاليف الكلية للحملة الصليبية ١٢٤٨ ـ ١٢٥٤ م التى قام بها لويس التاسع ملك فرنسا قدرت بحـوالى ١٫٥٢٧٫٥٧٠ جنيها Livres أو أكثر من دخله السنوى ست مرات ، ومن المؤكد أن هذا الرقم اقل بكثير من الواقع اذ انه انفق اكثر من ١٫٠٠٠٫٠٠٠ (مليون جنيه) فى فلسطين بعد هزيمته النكراء فى مصر •

واضطر الحكام الى جمع الاعانات والتبرعات من رعاياهم بعد مضى فترة على قيام الحروب الصليبية • وفى ١١٤٦ م فرض لويس الثامن على فرنسا احصاء رسميا للسكان بهدف جمع الأموال للحملة الصليبية الثانية ، وليس من الواضح الطريقة التى تم بها هذا الاجراء ، بيد أن الأموال تـم جمعها من الكنيسة ومن جمهور النصارى من غير رجال الدين the laity كما انها اخذت طابع الأموال الجبرية ذات الطابع الاقطاعى • وفى سنة ١١٦٦ م فرضت ضريبة لصالح الأراضى المقدسة على قيمة الممتلكات المنقولة، والدخل وجمعها لويس ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك انجلتـرا • وفى ١١٨٥ م فرض هنرى ملك انجلترا ، وفيليب ملك فرنسا ضريبة متغيرة تدريجيا على الدخل والمنقولات، وطالبوا بعشر الصدقات التى تركها من ماتوا فى العشر

سنوات التالية للرابع والعشرين من يونية ١١٨٤ م · وفى ١١٨٨ م فرض هنرى ضريبة عشر صلاح الدين Saladin Tithe الشهيرة لمدة عام واحد على الدخل والمنقولات ، ومن الكهنة والعلمانيين ، الذين لم يشاركوا فى الحروب الصليبية · وفى يونيه ١٢٠١ م اقنع أوكتافيان Octavian الممثل الشخصى للبابا كلا من حنا ملك انجلترا وفيليب ملك فرنسا للمساهمة بجزء من أربعين a fortieth من دخل عام كامل من أراضيهم ، وأن يجمعوا النسبة نفسها من أراضى اتباعهم الاقطاعيين · ووجدت تلك الضرائب العرضية صفة دائمة طوال القرن الثالث عشر الميلادى : فعلى سبيل المثال ناشد لويس لويس التاسع المدن لتدفع له الأموال لحملته الصليبية وذلك فى الأربعينيات من القرن الثالث عشر ، وفى ١٢٧٠ م وافق البرلمان الانجليزى على منح اللورد ادوارد جزء من عشرين من الدخل للحملة الصليبية · وفى ١٢٧٤ م طلب البابا جريجورى العاشر ان يفرض كل حاكم مدنى بنسا واحدا من الفضة على كل فرد لصالح الحرب الصليبية ·

وابدى البابوات اعجابهم الشديد بقيمة الصدقات والوصايا التى قدمها النصارى ، منذ البداية ، وبصفة خاصة الحماس الشعبى المتفجر الذى ظهر غداة الاستيلاء على فلسطين ، وامر البابوات بوضع خزائن فى الكنائس لجمع الصدقات ، وأموال الوصايا ، وذلك منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، ومنحوا الغفران برغم انه لم يكن غفرانا كاملا للذين يشتركون فى الحركة الصليبية على ذلك النحو ، وشجع البابوات جمهور النصارى على تحديد نسبة من ميراثهم فى وصاياهم لصالح الأرض المقدسة ·

والحق أن البابوات انفسهم لعبوا دورا مهما للغاية فى تمويل الحروب الصليبية · فاستخدموا عمليات قانونية عادية تتعلق بالكنيسة ـ فى عهد البابا جريجورى التاسع ، وفى عهد جريجورى العاشر أرسلت الكنيسة الى الأراضى المقدسة الأموال التى جمعتها الكنيسة كغرامات على كل المجدفين على الله blasphemers ـ واتخذوا اجراءات أخرى جديدة · وبدأوا يسمحون بمنح الخلاص الناجم عن النذر بالمشاركة فى حملة صليبية مقابل دفع أموال · وأدت سلسلة مختلفة من الأفكار المتعددة الى هذا التطور المهم · أولا ، انعكس الاعتقاد بأن الجميع لابد وأن يساهم بأى شكل فى الحركة الصليبية

فى تزايد عادة منح الغفران Indulgence فى مقـــابل المنح والهبـــات اكثر من المشاركة الفعلية . ثانيا ، واجهت الكنيسة اعداد كبيرة من الراغبين ليسوا فى الواقع على مستوى الكفاية للعمل العسكرى ، وان كانوا قـــد نذروا انفسهم للمشاركة فى الحرب الصليبية ، برغم أن الشعور العام يؤيد عدم مشاركتهم فى الحروب الصليبية . وذكرت احدى الكتابات التاريخية عن العظة الدينية التى القاها البابا أوربان الثانى فى كليرمونت انه قرر عـــدم مشاركة الفئات التالية فى الحرب الصليبية : كبار السن ، والنساء دون مصاحبة ازواجهن ، والقساوسة دون اذن ، وفى خطابات البابا أوربان الثانى الى بولونا Bologna وفالومبروزا Vallombrosa منع بعض الرهبان من الذهاب تحت اى ظرف ، وكذلك رجال الدين دون اذن ، والشباب الذين تزوجوا حديثا دون موافقة زوجاتهن ، وكذلك ابناء الابرشيات دون موافقـة الأسقف . وفى ١١٨٨ م اعلن هنرى الثانى ملك انجلترا أن معظم الصليبيين التابعين محظور عليهم اصطحاب النسوة معهم ، وفى حوالى ذلك التاريخ هاجم الكاتب رالف نيجر Ralph Niger بكل شدة اولئك الأفراد من رجـال الدين ، والرهبان ، والنسوة ، والمعدمين والشيوخ الذين شاركوا فى الحروب الصليبية . وفى ١٢٠٨ م كتب انوسنت الثالث الى النصارى فى لومباردى Lombardy والى مارس the March ، يقترح فيه على اولئك الذين ليس فى مقدرتهم خوض معارك قتال أن يرسلوا بدلا منهم مقـــاتلين على نفقتهم الخاصة .

ثالثـــا : كـان على رجـــال الكنيســـة ورجـــال القـــانون الكنسى أن يتصـــرفوا مـــع أولئـــك الـــذين نـذروا انفســـهم للمشـــاركة فى الحـــرب الصليبيـــة فى لحظـــة تحمس ســـريع ثـــم رغبـــوا ، فيما بعد ، فى التحلل من هذا النذر . ومنذ أوائل القرن العاشر الميلادى كان من المقبول أن يذهب شخص مكان آخر لأداء فريضة الحج للاراضى المقدسة ، وفى القرن الثانى عشر حدث أن كان من الصعب فيه الشعور بالارتياح نتيجة الوفاء بنذر الحرب الصليبية ، ثم أصبح ذلك شائعا فى وقت الحملة الصليبية الثـــالثة .

وبدأ البابوات منذ فترة إعتلاء البابا الاسكندر الثالث عرش البابوية، فى الموافقة على الاعفاء والبديل (ارسال شخص آخر مكان الصليبى) ، وفك النذر

(اعفاء الصليبى من الذهاب مقابل دفع مبلغ من المال) ، وابدال النـــذر الصليبى (القيام بعمل خيرى دينى آخر بدلا من الذهاب فى حملة صليبية)٠ وفى السنوات الأولى من فترة اعتلاء البابا انوسنت الثالث الكرسى البابوى اعلن بعض القواعد العامة ٠ وكانت تلك القواعد صارمة على نحو نادر حتى انها اكدت على مفهوم القانون الرومانى كميراث النذور على الابن أن يفى بالنذر الذى لم يتمكن والده الوفاء به ، بيد أنها قررت أن البابا وحده دون غيره هو الذى له حق منح تأجيل الوفاء بالنذر الخاص بالمشاركة فى حملة صليبية أو ابدال النذر الصليبى بعمل خيرى دينى آخر مكان الذهاب فى حملة صليبية، على أن يكون المبلغ الذى يدفعه لفك النذر مساويا للمبلغ الذى كان سيدفعه الصليبى لو أنه شارك فى الحملة العسكرية ٠ ومن الممكن ملاحظة أثر تلك القرارات منذ ١٢٢٣ م فصاعدا فى الخطابات البابوية ، وفى القرار المتعلق بالدعوة للحملة الصليبية الخامسة ، والذى أشار الى ابدال النذر الصليبى بعمل خيرى دينى آخر ، وفك النذر الصليبى عن طريق دفع مبلغ من المال بدلا من الذهاب مع حملة صليبية ، وفى تصرف سيمون رئيس اساقفة صور ، والممثل الشخصى البابوى فى فرنسا ، الذى شجع كل واحد ، مهما كنت صحته، وحالته ، على أن يشارك فى الحرب الصليبية ، وكان هدفه من ذلك جمـــع الأموال بدلا من الذهاب فى الحرب الصليبية ٠ ومنذ ١٢٤٠ م وبرغم التحذيرات البابوية كانت الأموال يتم دفعها بدلا من الذهاب للحرب الصليبية وبذلك يتم فك النذر الصليبى على ذلك النحو redemptions وصار ذلك أمرا متوقعا باعتباره نتيجة طبيعية ومنطقية ، لمن يطلب منه المشاركة فى الحرب الصليبية أو يطلب منه دفع البدل النقدى على الرغم من انه بعد فترة قصيرة تلت سقوط فلسطين كلها فى ايدى المسلمين ١٢٩١ م ، واصبح من الصعب تجميــــع الصليبيين ٠ وأصبح جمع الأموال أمرا مهما فى أواخر القرن الثالث عشر الميـــلادى ٠

على أن المساهمة المالية الكبرى أتت من الضرائب المباشرة التى فرضها البابوات لصالح الكنيسة ويلاحظ أن لويس التاسع حصل على القسم الأكبـــر من نفقات حملته من رجال الدين فى فرنسا ٠ وتوجد أول اشارة عن الأفكار الجديدة بشأن المساهمة المالية التى أرسلها البابا كليمنت الثالث Clement III سنة ١١٨٨ م الى رجال الدين فى كانتربرى Canterbury ، وفى جنـــــوه

يستحثم على تخصيص جزء من ثروتهم لدعم الحرب الصليبية • وبعد ذلك بعشر سنوات امر انوسنت الثالث Innocent III ، اساقفة العالم المسيحى أن يرسلوا الرجال والأموال للمشاركة فى الحملة الصليبية الرابعة ، وكرر هذا الامر البابوى عام ١٢١٣ م ، وكان قد اتخذ خطوة على جانب كبير من الاهمية ١١٩٩ م • اذ قد توصل الى قرار بانه ليس هناك مناصا من فرض ضريبة على كل الأساقفة ، وأكد لهم ان ذلك لن يصبح عادة او قانونا أو حادثة سابقة يمكن تكرارها ثم ابلغهم انه سيرسل بنفسه عشر اجمالى دخل الخزانة البابوية لساعدة الصليبيين بالمشرق الاسلامى • اذ امر رجال الدين بدفع جزء على اربعين من اجمالى دخولهم ، بعد خصم أى مبالغ متعاقد على سدادها للمرابين، وسمح لعدد قليل ممن سمح لهم البابا بدفع جزء من خمسين من اجمالى دخولهم • وكان على المجالس الاقليمية دراسة الموضوع فى مدى ثلاثة اشهر حيث نظم مجلس فى كل ابرشية عملية جمع المساعدات المالية للحرب الصليبية مع وجود احد افراد فرسان الداوية أو الهيكل a Templar ، واحد فرسان الاسبتارية a Hospitaller • وبناء على نصيحة الراهبين نفسهما ، والشخصيات القيادية المحلية كان على كل اسقف ان يستاجر مقاتلين وان يقدم الدعم المالى للصليبية الفقراء • وثبت أنه من الصعب للغاية جمع تلك الأموال، ففى عام ١٢٠١ م لم يتم جمع شىء فى انجلترا ، أو فى فرنسا ، وفى ١٢٠٨ م لم يتم جمع شىء فى مناطق فى ايطاليا ذاتها • وعلى الرغم من ان البابا انوسنت الثالث فرض ضرائب على الكنائس فى المقاطعات التى بها صليبيين ، فان فشل الاجراء الذى حدث ١١٩٩ م ، هو الذى اقنعه بالا يطلب جمع ضرائب اخرى عام ١٢١٣ • ولكن بعد ذلك بعامين طلبت الكنيسة دفع جزء من عشرين من الدخل لمدة ثلاث سنوات بناء على قرار مجمع لاتيران Lateran الرابع • ومنذ ذلك الحين فصاعدا تم تقدير ضريبة الدخل على اساس نظام ضريبى ، واصبح اكثر شمولا عند اعلانه ١٢٧٤ م فى مجمع ليون الثانى the Second Council Lyons ، وذلك بدفع العشر مرة كل ست سنوات a Sexennial tenth أن هذا العشر تم توزيعه على البلد الواحد ، ويختلف من سنة واحدة الى ست سنوات ، وذلك لصالح الكنيسة العالمية ورجال الدين • وكان أمرا عاديا اجراء محاولات لسداد قسطين متساويين كل عام ، بالرغم من أن المقاومة كانت أمرا شائعا ، وكان دفع الأقساط فى حالة تاخر بصفة دائمة تقريبا • وفى بداية الأمر كانت المبالغ يتم سدادها للصليبيين

المحليين أو يتم ارسالها مباشرة الى الأراضى المقدسة فى الوقت الذى اقتصر فيه عمل البابوات على تلقى التقارير ، بيد أن البـــابا هونوريوس الثالث Honorius III قام سنة ١٢٢٠ م بالاكتفاء بمراقبة عملية أرسال الأموال ٠ وفى منتصف القرن الثالث عشر اصبح من المالوف بالنســـبة للبابوات ان يصدروا تنازلا عن الضرائب المطلوبة من الملوك او اصحاب الاقطاعات الذين وعدوا بالمشاركة بأنفسهم فى الحرب الصليبية ، واذا لم يكن قد رحـــل الملك بعد ، فان الأموال التى كان قد أودعها لصالحه فى الأديرة يجب أن ترسل الى البابوية فى روما بمعرفة التجار الكبار المتصلين بالبابوية ٠ وعـلى ضوء المقاومة التى ابداها الحكام الدينيون كان من النادر ان يتسلم البابوات كل ما يجب أن يصل اليهم ٠

وتم جمع مبالغ ضخمة من الأموال من الصدقات ، ووصايا الارث ، والأموال التى دفعها الصليبيون لفك النذر الصليبى بدلا من الذهاب مـــع الحملات الصليبية redemptions ، ومن الضرائب ، ولذلك كانت هنـاك حاجة ملحة لوجود جهاز ادارى على مستوى الكفاية الى حد ما لجمع تلك الأموال ٠ وفى ١١٨٨ م امر البابا كليمنت الثالث كل الأساقفة بتعيين كهنـة لتحصيل الاموال وانفاقها على القوات الصليبية ، ثم قام البابا انوســـنت الثالث بنفسه باختيار جباة الأموال من بين رجال الكنيسة فى كل اقليم وذلك عام ١١٩٨ م ، واصبح امرا تقليديا فيما بعد ان يعينهم البابا برغم أنهم من اهالى الاقليم نفسه وفى السنة التالية سلم البابا نظامه فى جمع الضرائب لاشراف الأساقفة ، وربما كان ذلك بهدف تخفيف حدة التوتر النفسى المحلى ، غير أن افتقار التعاون أدى على الفور الى أن عين البابا موظفين من روما وأرسلهم للاشراف على جمع الأموال ثم عاد البابا انوسنت الثالث الى النظام فى التحصيل سنة ١٢١٢ م ، وكلف الدعاة للحـــرب الصليبية فى الأقاليم بالاشتغال فى مهمة جمع الأموال أيضا ٠ ووضعت البابوية أعضاء تابعين لها مهمتهم جمع المبالغ المفروض جمعها من الكنيسة سنة ١٢١٥ م فى عهـد البابا انوسنت واستمر تنفيذ ذلك النظام حتى عهد البابا هونوريوس الثالث Honorius III على نحو اكثر ٠ وانتشر الجباة التابعون للبابوية لممارسـة أعمالهم طوال القرن الثالث عشر ، وفى ١٢٧٤ م تم تقسيم العالم المســيحى الى ست وعشرين منطقة يتولى العمل بها الجباة ، والجباة المساعدون ٠ وقام

رجال الدين بانفسهم بتحديد الضرائب لعامى ١١٩٩ م ، و ١٢١٥ م ، غير أنه فى ١٢٢٨ م أمر البابا جريجورى التاسع الجباة البابويين باختيار مندوبين خصوصيين للقيام بمهمة الذين اجبروا رجال الكنيسة على القسم لمعرفة قيمة الدخول الكهنوتية فى كل منطقة على حدة ·

واستطاع البابوات الاستفادة من جهاز الكنيسة الادارى الذى كان على مستوى عال من الكفاية فى انجاح مجالى الدعوة للحرب الصليبية وجمع الأموال لتمويل تلك الحروب · بيد أن مشاكل البابوات لم تنته بحشد المقاتلين للمشاركة فى الحروب الصليبية وجمع الأموال لتقديم العون المالى لهؤلاء المقاتلين · والى أين تذهب اى حملة صليبية ؟ وكيف يمكن أن تتم السيطرة على الحملة الصليبية وهى فى طريقها الى المكان المقصود ؟

الاستراتيجية الصليبية :

كانت استراتيجية الحرب الصليبية قضية اخلاقية لأنها حرب مقدسة لابد وأن تدور رحاها بطريقة تحقق اهدافها دون احساس بالألم او الكلل · ومن الطبيعى أن تغير الأحوال المناخية من فصل لآخر ، بالاضافة الى اذا ما وضع المرء فى اعتباره استحالة تنسيق تحركات فرق عسكرية من مناطق مختلفة فى أوربا حتى يمكن تجمعها فى مكان واحد ، وموعد واحد ، قد أدى الى تخطيط طويل الأمد ·

وكانت الحوادث التاريخية تتجاوز الخطط التى أعدها الغرب الأوربى ولذلك فان القرارات النهائية تولتها مجالس الحرب التى كانت تنفذ على الفور · وفى ١٢٣٨ م اقترح القادة النصارى على تيبوت من شامبين Thibaut of Champagne ذهاب الأسطول الذى ينقل حملته الصليبية الى ليماسول Limassol ، فى قبرص حيث يتمكن الأسطول من تجهيز نفسه مرة ثانية ، والتزود بالمؤن وما شاكل ذلك · وهناك يمكن لمجلس الحرب أن يبحث اذا ما كان من الأفضل التقدم نحو سوريا أو الى مصر ، وقد أوضحوا أن ليمارسول على بعد متساو مع كل من عكا والاسكندرية ، ودمياط · وعلى الرغم من أن لويس التاسع ملك فرنسا كان قد بنى خططه على غزو

مصر منذ البداية فى الأربعينيات من القرن الثالث عشر ، فانه لم يعط الأوامر النهائية الا بعد وصوله الى قبرص • ومع ذلك فقد تم وضع بعض الخطط العامة فى الغرب الأوربى • وبدأ البابا انوسنت الثالث يتلقى التقارير المتتالية من النصارى المحليين ، عن الأحوال السياسية فى المشرق الاسلامى ـ ولا ريب انه تلقى منهم النصيحة عندما كان يخطط من أجل الحملة الصليبية الخامسة ـ ومنذ السبعينيات من القرن الثالث عشر فصاعدا ما زال هنـــاك كثير من المذكرات التى كتبها البابوات ، معظمها تمت كتابته فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى عندما فقد النصارى الأراضى المقدسة ، وكان عليهم ان يبذلوا جهودا فائقة من اجل استعادتها • وربما يمكن ملاحظة نفاذ البصيرة الملهمة فى المباحثات حول الاستراتيجية الصليبية فى وصف جيمز الأول ملك ارجون لمناقشات مجمع ليون الثانى the Second Council of Lyons ١١ م ، حيث شارك فيه ، ومعه البابا جريجورى العاشر ، وفى الحقيقـة ظلت طـــريقة استراتيجية جديدة لها الهيمنة منذ الخمسينيات فى القرن الثالث عشر الميلادى بالتاكيدعلى اقامة القلاع العسكرية الدائمة فى الأرض المقدسة ، وتشجيع الحملات العسكرية الصغيرة ولديها القدرة على الحركة السريعة والتى كان فى استطاعة الصليبيين ارسال الواحد منها بعد الأخرى الى المشرق الاسلامى• هذا هو الفكر الاستراتيجى الرئيسى الذى ظل قائما حتى انتهاء النفوذ الصليبى فى فلسطين ١٢٩١ م • وغالبا ما يقرأ المرء عن انخفاض شديد للحمـــاسة الصليبية بعد منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، بيد أن ذلك يمكن اعتباره به شىء من المبالغة : فقد وقع المؤرخون فى الخطأ الناجم عن التغير فى الاستراتيجية الصليبية لصالح الحملات الصليبية الصغيرة المنظمة محليــا فى بلد ما ، والتخلى عن سياسة تكوين الحملات الصليبية الكبرى التى تضم مقاتلين من عدة دول •

الانظيم والادارة فى الحرب الصليبية :

كانت الحروب الصليبية ادوات نافعة وفعالة للبابوية ، وهى اقـــوى التعبير المثير للحكومة البابوية ، حيث تحركت جيوش الجمهورية المسيحية استجابة لنداءات اهل الأرض الذين يمثلون ملكها • وشاهدنا أن البابوات واجهوا صعوبات كبرى من اجل تجميع القوات الصليبية وتحريكها وتمويلها•

والواقع ان تنظيم الحملات الصليبية وادارتها احتاج الى قدرات تفوق ما عند الرجال فى ذلك الحين تقريبا • غير انه ما ان كان يتجمع جيش صليبى ، ويتم حل مشاكل نقل الجنود ، وايوائهم ، وتموينهم ، وتحديد الهدف حتى يجب اتمام التحكم فى القوات ، والسيطرة عليها عن بعد وهذه كانت اكثر الأعمال صعوبة • ومنذ بدء الحملة الصليبية الأولى فصاعدا كان هناك ممثل شخصى للبابا فى روما فى كل الجيوش الصليبية • وكان الممثل الشخصى للبابا يتم تعينه للاشراف العام على كل الجيش الصليبى ، وكان من الممكن وجود نواب لهـذا الممثل الشخصى للبابا يتم اختيارهم لمراقبة الفرق المقاتلة الخاصة بامة بعينها أو اقليم بعينه ، بالرغم من ان علاقاتهم مع رؤسائهم لم تكن دائما طيبة ، وعلى ما يرام • وفى الحملة الصـــليبية الثـــانية كان ارنولف من ليزيو Arnulf of Lisieux وجـــودفرى من لانجــــر Godfrey of Langres ومع كل منهما مساعد من ابرشيته يمثلان البابا شخصيا من الأنجلو ـ نورمان Anglo-Norman والصليبيين الفرنسيين ، غير انهما لم ينسجما فى التعامل مع كل من ثيودوين Theodwin ، وجوى Guy اللذان يتوليان الاشراف الكلى على كل الحملة العسكرية الصليبية من قبل البابا الذى عينهما لهذا الأمر • وكان الممثلون الشخصيون للبابا من رجال الكنيسة بصفة دائمة، ولهذا ظهرت مشاكل كان من الصعب حلها • وكان البـــابا وكل الممثلين الشخصيين له من الكهنة ، كما كان محرما عليهم حمل السلاح والمشـــاركة فى القتال ، ولذلك لم يكن من اختصاصهم التـــوجيه السلوكى والادارى للحملات الصليبية • وعبر عن ذلك القديس برنارد St Bernard بوضـوح ١١٥٠ م عندما كتب الى البابا اوجينيوس الثالث Eugenius III بعد أن تـم تكليفه بقيادة حملة صليبية جديدة • كيف يمكن له ان يقود قوات عسـكرية؟ وكتب القديس برنارد انه كان عليه أن تستل السيفين الدينى والدنيوى ، تحت تصرف البـابا •

كان ادهيمار Adhemar أول ممثــــل شخص للبابا Legate تم تعينه « قائدا » عاما للحملة الصليبية الأولى ، ويبدو أن الاستنتاج العـام هو أن البابا أوربان الثانى جعل من قيادة ادهيمار فى نطاق الواجبـــات الدينية والتعبير عنها من خلال تقديمه النصيحة والتحكيم والعظة • وتـم

مقارنة القيود التى فرضت على سلطات ادهيمار القيادية مرارا وتكرارا فى تاريخ الحروب الصليبية ، وليس من الدهش أن مجمع لاتيران Lateran الخامس كان غامضا لدرجة تثير الانفعال بشأن مسئوليات الكهنة فى الجيش المسيحى ، « الذين يجب عليهم أن يكرسوا انفسهم بكل كد وجد للصلوات والعظات ، وأن يعلموا الصليبيين بالكلمة والقدوة الحسنة ، حتى يضعوا نصب أعينهم الحب المقدس والخوف المقدس Divine Fear and Love وألا يصدر عنهم ما يغضب الله تعالى » ٠

وكتب البابا انوسنت الثالث Innocent III بخصوص مندوب بابوى اخر ، عندما كان يوشع Joshua يقاتل ، فانه ارتقى جبل التامل الروحى وتضرع لله » ٠ وهناك حالة استثنائية ، ذلك بالاشارة الى بيلاجيوس من البانو Pelagius of Albano ابان الحملة الصليبية الخامسة ، وان دور بيلاجيوس النشط فى الحملة العسكرية كان موضع تعرض للوم فى ذلك الحين ٠ بيد ان الخطاب البابوى الذى حدد واجباته كان منسجما مع التقاليد والعرف المتبع تماما بتمام ، على الفور تمت الموافقة على قيادته العسكرية بصفة رسمية ٠ ونظرا لقوة شخصية بيلاجيوس فقد تمكن من الهيمنة على مجالس الحرب والسيطرة عليها ٠ غير انه لم يكن يأمر ، وانما كان يقدم النصيحة، وحاول أن يحصل على موافقة عامة على كل مقترحاته ٠ ولم يمنع ذلك من عدم قبول نصيحته احيانا ٠

وفى الحقيقة جعل القانون كلا من البابا وممثله الشخصى his legate تابعين لشعور المحبة والود تجاه القادة العلمانيين ، الذين فى استطاعتهم وحدهم ، ودون غيرهم ، اصدار الأوامر العسكرية ٠

٤ ـ من هم الصـــليبيون ؟

النـــذر ::

لا يمكن ان يكون هناك حملة صليبية دون مقاتلين صليبيين يكونون قد اخذوا عهدا على انفسهم بالمشاركة فى حرب صليبية · وقام البابا أوربان الثانى بوضع هذا النذر موضع التنفيذ لأول مرة عندما طلب من جمهــــور المستمعين اليه فى كليرمونت ان ياخذ كل فرد على نفسه عهدا ، واخبر كل اولئك الذين استجابوا لدعوته أن يخيطوا صلبانا على ملابسهم كعــلامة علنية عن تعهدهم · وكان ذلك عنصرا أساسيا جديدا فى الحرب المسيحية المقدسة بالرغم من انه كان نتاجا لسلسلة من الأفكار التى كانت موجودة من قبـــل فى فكــر البـــابا اوربان الثـــانى نوفمبر ١٠٩٥ م ، فى بينزا Faicenza فى مارس السابق كان قد استجاب لاستغاثة اليونانيين بان نصـــح الرجـــال بان يقسموا على العمل فى سبيل الله ، ومساعدة الامبراطور البيزنطى ضـــد المسلمين ، ولا ريب أن النذور النصرانية لها تاريخ طويل ولفترة طويلة من الوقت ظلت النظرة اليها على انها تعهدات ملزمة وخلال قرن ونصف بعــــد بدء الحروب الصليبية عالج رجال القانون الكنسى النذور معالجة كاملة · واصبح تعريف النذر على انه تعهد ملزم امام الله لأداء اعمال محددة أو عدم ادائها · ومن الممكن أن تكون النذور بسيطة وتتم دون شكليات رسمية ، ولذلك فهى لا تفرض بالقوة من قبل الكنيسة ، وليست مقدسة ، وهى علنية ، وهى ملزمة من الناحية القانونية ، وهذا الالزام يشمل جميع المسيحيين · وكـــان على الرجل المرور خلال بضع مراحل ــ يطلق عليها الدراســـة deliberatio والنية propositum ، والنذر votum ـ قبل ان يتعهد بتنفيذ النذر ، بيد انه ما ان يقسم على تنفيذ النذر ، ولم يتمكن من الوفاء به ، فان ورثتـــه كانوا ملزمين بالوفاء به، وعلى الرغم من ذلك ففى حالات معينة يمكنه الحصول على اعفاء من الوفاء بهذا النذر او فى استطاعته استبدال النذر · وكان هذا التعريف للنذر نتاجا لفترة طويلة من التطور بيد انه كان نقطة بداية نافعة لوصف النذر للمشاركة فى حملة صليبية · وكان النذر الصليبى مقدسا ، وخاصا ، واختياريا ، دائما ، وغالبا ما كان مشروطا ، وأدى الى وعــــد مؤقت يتعلق بالمشركة فى الحملات العسكرية الهــــادفة الى الذهاب للقبر

المقدس ، فى بيت المقدس مع صلاحية رحلة الحجاج أن تكون فى مصاف حملة عسكرية منظمة، اقر البابا قيامها ورحيلها • وتشير الأدلة التى مازالت موجودة عن الحملة الصليبية الالبجنسية Albigensian Crusade أن النذر فى ذلك الحين كان يتم لمحاربة النصارى الذين يدينون بمعتقدات تخالف تعاليم الكنيسة héretics ، واعداء النصرانية فى لانجودوك Languedoc • وكانت ثمة علامة قريبة بين نذور الصليبيين والحجاج • ووجد رجال القانون الكنسى فروقا طفيفة بين نذور الحروب الصليبية ونذور الحجاج ، وفى حوالى ١٢٠٠م ذكروا نذورا لصليبيين بمفردها ، اذ أن التزام الصليبى أن يفعل ما كان ينظر اليه كنوع من الحج الى لأراضى المقدسة ، كما أن كثيرا من الامتيازات التى حصل عليها الصليبى كان الحجاج يتمتعون بها ، اذ ان طقوس القسم على المشاركة فى حملة صليبية (والتى تصادف انه لا يوجد شىء منها قبل أواخر القرن الثانى عشر الميلادى) تظهر على انها مختلفة عن تلك التى يؤديها الحجاج وربما نقل القسم الصليبى عن قسم الحجاج • بل وكان فى استطاعة الصليبيين الحصول على صك وعكاز الحجاج Scrip and staff of pilgrims بالاضافة الى الصليب الذى يميز وعدهم الخاص •

الامتيـــازات :

كان للقسم على المشاركة فى حملة صليبية نتائج على الوضع القانونى وحقوق الصليبى الذى ارتبط بحملة صليبية • انه اصبح رجلا كنسيا بصفة مؤقتة ، وخاضعا لمحاكم الكنيسة • وكان النذر الذى اخذه على نفسه وسيلة عن طريقها يمكن أن يتحول حماسة الغورى الى تعهد قانونى ، من حق القضاة وضعه موضع التنفيذ بعد أن اصبح مسؤولا امامهم ، ومنذ بدء الحملة الصليبية الأولى كانت البابوية مستعدة لتوقيع الحرمان الكنسى على كل من لم يقم بتنفيذ وعده • وكان فى استطاعة المحاكم الكنسية فرض ، أو التهديد بفرض قرارات الحرمان الكنسى ، والحـــرم من شركة المؤمنين interdict والحرمان المؤقت suspension على الصليبيين المانعين فى المشاركة فى الحرب الصليبية ، بالرغم من أن رجال القانون الكنسى ذهبوا بعيـــدا عندما اقترحوا حرمان ورثتهم من الارث لكل من لم يقم بتنفيذ وعود ونذور آبائهم الذين ماتوا دون الوفاء بنذورهم • بيد أن الصليبيين اكتســبوا حق

التمتع بامتيازات معينة بمجرد ان يقسموا بالمشاركة فى الحرب الصليبية او لى الاقل قد بداوا تنفيذ تعهداتهم • ويجب التاكيد على ان الغفران الكنسى Indulgence لم يكن بالضرورة مثل الغفران الذى يصبح نافذ المفعول مباشرة ، اذ لم يكن مقررا انه يصبح نافذ التأثير بمجرد أن يقسم الصليبى بالمشاركة فى الحرب الصليبية أو بعد القيام بالعمل الذى من اجله اقسم ونذر نفسه • ولذلك سوف يتم بحث ذلك بالتفصيل •

وفى اغلب الأحوال كانت الامتيازات الأخرى يتم تسجيلها ضمن قائمة لها عناوين الحقوق الدينية ، وهى تلك التى تسهم فى العمل من اجل مصلحة روح الصليبى ، ودنياه ، وتلك الامتيازات تتعلق بصالح بدنه ورناهيته • وكان من حق الصليبى ان ينعم بالصلوات والابتهالات التى تقدمها الكنيسة العالمية للصليبيين ، ولم يكن ذلك امتيازا من الناحية العملية ، اما الميزة العمليـة فهى الاعفاء القانونى من الوقوف فى المحاكم •

ومن الممكن بحث المجموعة الأولى على وجه السرعة • فمن بين تلك المجموعة الأولى الترخيص لرجال الدين الذين انضموا للحملة الصليبية بأن ينعموا بدخل رتبتهم الكنسية لفترة قصيرة من الوقت ، حتى لو لم يكن لهـم محل اقامة معين ، ويسمح لهم بجمع الأموال من اجل الرحلة ، وكان ذلك موجودا فى القرن الثانى عشر بالرغم من انه لم تقم البابوية بالتاكيد على ذلك حتى القرن الثالث عشر الميلادى • ومنذ عهد البابا انوسنت الثالث فصاعدا حصلوا على الاعفاء من الحرم الكنسى Excommunication استنادا الى الانضمام للحملة الصليبية والمشاركة فيها ، والترخيص لهم بالتعامل مـع الأشخاص المحرومين كنسيا ، اثناء وجودهم فى حملة صليبية ، دون أن يعرضوا انفسهم للوم والاستهجان ، وله الحق فى الا يستدعى للمثول امـام القضاء لحضور جلسات الدعاوى القضائية خارج الأبرشية التى ولد بها المرء وعاش بها ، والاعفاء من عواقب الحـــرم من شركة المؤمنين interdict والتمتع بامتيازات كونه كاهن اعتراف شخصى personal confesser ، الذى له فى اغلب الأحوال سلطة الاعفاء لكل من تحت رعايته من الأفراد من خطاياهم، بل وله الحق فى منح العفو من الخطايا ، والتى كانت فى العادة قاصرة على

السلطة القضائية البابوية . وله الحق فى اعتبار النذر للمشاركة فى حملة صليبية بديلا كاف عن اى نذر آخر سابق ولم يكن قد تم الوفاء به .

اما امتيازات المجموعة الثانية اكثر اهمية . ففى زمن الحملة الصليبية الأولى كان الحجاج تابعين الى المحاكم الكنسية باعتبارهم كهنة ، وكانت اشخاصهم مصونة من اى هجوم ، وهو ضمان تزايدت قوته عندما احرزت حركة السلام تقدما ، وحصلوا على تأكيد بأن العقارات والممتلكات التى يديرها آخرون اثناء غيابهم ستعود اليهم بمجرد عودتهم ، وفى استطاعتهم طلب كل ما يحتاجون اليه من مطعم وملبس ، ومأوى ، وما شـــابه ذلك hospitality من الكنيسة . ومن الناحية النظرية كانوا يتمتعون بالاعفاء من دفع المكـوس، والضرائب ، ومحصنين ضد الاعتقال ، وتمتع الصليبيون بالحقوق نفسها منذ البداية . وباعتبارهم ضمن رجال الكنيسة بصفة مؤقتة فقد كان الصـليبيون تابعين للقانون الكنسى باستثناء بعض الأمور ، كما انهم لم يخضعوا للسلطة التشريعية المدنية فى القضايا التى تستجد بعد أن يكونوا قد التحقوا بحملة صليبية . وقامت الكنيسة بحماية أسرهم وممتلكاتهم اثناء غيابهم ، حيث أخذت على عاتقها القيام بهذا الواجب أثناء الحملة الصليبية الأولى أو بعـد قيامها بقليل . « ونقرر أن زوجاتهم ، وأطفالهم ، ومنقولاتهم ، وممتلكاتهم يجب ن تظل تحت حماية الكنيسة المقدسة ، وتحت حمايتنا ، وتحت حمـاية رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، والمطارنة الآخرون فى كنيسة الله . وبنـــاء على سلطتنا البابوية فاننا نمنع اقامة اى دعاوى قضائية من الآن فصاعدا تتعلق بأى ممتلكات حصلوا عليها سليما عندما التحقوا بالحملة الصليبية حتى ورود معلومات اكيدة بعودتهم أو وفاتهم » .

وكتب البابا جريجورى الثـــامن الى الصـــليبى هنكو من سيروتين Hinco of Serotin سنة ١١٨٧ م : « نظرا لأنك .. قد حملت شارة الصليب، وعزمت على الذهاب لمساعدة الأرض المقدسة ، فاننا .. نحفظ شخصك ، وتكون تحت حماية القديس بطرس وحمايتنا ، ومن معك من اتباع وممتلكاتك التى فى حوزتك فى الوقت الحاضر .. ونقرر أن كل شىء سيظل كاملا غيـر منقوص منذ رحيلك عبد البحار للاراضى المقدسة حتى عودتك او وفاتك » .

قامت الكنيسة بمراقبة الاشراف على الممتلكات الاقليمية من خلال جهود

الأساقفة ، أو فى بعض الحالات الخاصة بالصليبيين المشهورين فى خلال موظفين خصوصيين اطلق عليهم conservatores crucesignatorum واصبح امرا شائعا وبخاصة فى انجلترا أن قام الملك فى اغلب الأحوال بممارسة دوره ، وكأنه وصى على ممتلكات الصليبيين ، كما قام الصليبيون أنفسهم بتعيين وكلاء لرعاية مصالحهم اثناء غيابهم • وكان فى استطاعة الصليبيين تأجيل القيام بالصلوات والعبارات الدينية وكذلك تاجيل الدعاوى القضائية لأنهم جماعة من الجنود المقاتلين حتى عودتهم ، وفى استطاعتهم اجراء تسوية سريعة للقضايا المعلقة بالمحاكم متى رغبوا ، ولهم الحق فى التخلص من الاقطاعات او رهنها ، أو اى ممتلكات اخرى غير قابلة للتحويل، والحصول على اقرار رسمى بتاجيل دفع الديون والاعفاء من سداد فوائد اى مبالغ اثناء مشاركتهم فى حملة صليبية ، وكذلك الاعفاء من المكوس والضرائب •

ويأتى بعد ذلك الغفران مما تقدم من الذنوب Indulgence وهى قضية شغلت رجال القانون الكنسى كثيرا فى القرن الثالث عشر الميلادى بخصوص اذا ما كان الغفران يعتبر نافذ المفعول منذ اللحظة التى التحق فيها الصليبى بالحملة الصليبية أم بعد أن تنجز الحملة الصليبية مهمتها : وبمعنى آخر ، هل كان الغفران ناتج عن اخذ العهد على نفسه أم نتيجة لتنفيذ الفعل الذى تم النذر للوفاء به ؟ وهذا مهم ، وبخاصة بالنسبة لآمال الصليبيين الذين ماتوا قبل الوفاء الكامل لنذورهم او حتى قبل أن يبدأوا تنفيذ الوعد والنذور• واعتقد القديس توما الاكوينى St Thomas أن صياغة المنح البابوية الخاصة بالغفران الكنسى كانت اساسية : فاذا كان الغفران الكنسى يتعلق باولئك الذين ينضمون لحملة صليبية لمساعدة الأراضى المقدسة ، فعندئذ يكون شرط الغفران قاصرا على مجرد القسم لتنفيذ النذر وليس الذهاب الى الأرض المقدسة ، ومن ناحية اخرى اذا كان الغفران الكنسى قد تم منحة الى الى اولئك الذين يذهبون عبر البحار على وجه التخصيص ، فعندئذ يجب أن ينفذ الشروط بالمشاركة فى الحملة الصليبية قبل أن يكون النذر نافذ المفعول • ومن الواضح عدم وجود اتفاق عام فى هذا الشأن ، الذى كان معقدا وفقا لحقيقة أن الغفران من الممكن منحه لهؤلاء الذين شاركوا فى حروب صليبية غير انهم لم يأخذوا عليهم انفسهم عهدا بالتنفيذ على الاطلاق • وكل ما هو

مؤكد للمرء ان الغفران لم يكن نتيجة تلقائية للقسم الذى اخذه الفرد على نفسه للمشاركة فى حملة صليبية ، وذلك على عكس الامتيازات الأخرى ٠

ولكن ما هو الغفران الكنسى ؟ ان التعاليم الرسمية هى انه بعد الاعتراف للكاهن ، والحل من التبعات ، واداء الأعمال التى يستحقها الغفران ، تمنح الكنيسة نيابة عن الله الصفح عن كل أو بعض العقوبات الحتمية نتيجة للخطيئة التى ارتكبها المذنب ٠ ويخصص هذا الصفح للعقوبات الكنسية التى تفرضها الكنيسة نفسها بمعرفة الكاهن فى كرسى الاعتراف عادة ، وكذلك العقوبات الدنيوية التى يفرضها الله فى هذه الدنيا وفى يوم القيامة ٠ وتأثرت العقيدة بالتمييز بين الاثم والعقاب الواجب الأداء فى حالة ارتكاب الذنب ، وهو ما ذكره هوج من سانت فيكتور Hugh of St Victor ، وجريتيان Gratian فى اوائل القرن الثانى عشر ، وبالمفهوم الذى تكون بالكامل فى القرن الثالث عشر فقط ، ولكن تم عرضه فى صيغة بدائية ٠ وظهر الغفران الكنسى Indulgence لأول مرة فى منتصف القرن الحادى عشر ، وتطورت نظرية الغفران الكنسى مع الحروب الصليبية ، وتكشف عمليات المنح الباكرة عن غموض باعث الأسى بشان الهدف وكذلك ارباك بالنسبة للمصطلحات الفنية ٠ ولذلك فمن المتفق عليه بصفة عامة ان الغفران الكنسى كما نعرفه لم يكن فى الامكان قبوله ، على المستوى الرسمى ، حتى القرن الثالث عشر ، برغم أى تفكير جال بخواطر البابوات ومن يسترشدون بآرائهم ، اذ أن عامة المسيحيين افترضوا منذ البداية أن الغفران الكنسى يعنى الصفح والغفران من كل العقوبات الواجبة الأداء على الذنوب والخطايا ، وأن هذا الغفران الكنسى هو تأكيد قوى على دخول الجنة على الفور ودون حساب ٠ ومع ذلك فمن المحتمل أن النظرة المتطورة للغفران الكنسى بدأت فى القبول فى روما قبل التاريخ الذى يفترضه الباحثون حاليا ٠

وفى سنة ١٠٦٣ م منح البابا الاسكندر الثانى غفرانا كنسيا Indulgence للمقاتلين النصارى فى أسبانيا : « اننا نيابة عن سلطة الرسل المقدسين والقديس بولس ترفع الى السماء كفارتهم ونصفح عنهم ذنوبهم كلها » ٠ ومن الواضح أن يجد المرء فكرتين فى هذه الصيغة ٠ أما الفكرة الأولى والمتعلقة بالعقوبات الذاتية التى ينزلها الآثم بنفسه وبتوجيه من الكاهن عند توبة الآثيم

penance . فقد تم التنازل عنها ، واما الفكرة الثانية وهى فكرة ارتكاب الآثام والصفح عنها واصبحت فى حكم الملغاة · ان تعبير الصفح عن الذنوب remissio peccatorum صار اقرب الى الغفران الكنسى المتطور لأنه اشار الى الغاء ومحو الذنوب التى ارتكبها المذنب دون تمييز بين الكفارة penance والعقوبة المقدسة · واستخدم البابا أوربان الثانى هذا التعبير مرتين ، فى خطابه الى الفلاندر Flanders سنة ١٠٩٥ م ، وفى ١٠٩٨ - ١٠٩٩ م ، عندما منح الغفران الكنسى لأولئك الذين يدافعون عن تراجونا Tarragona فى أسبانيا ، وهو نفس الغفران الكنسى الذى كان يحصل الصليبيون عليه ، وان كان قد اعتمد على افكار وردت فى خطاب البابا الاسكندر الثانى · واعلن القانون الثانى لمجمع كليرمونت ، « ان كل من يشارك فى هذه الحملة العسكرية من اجل تحرير كنيسة الله فى بيت المقدس ، وكان هدفه هو الاهتمام الدينى فحسب ، ودون أن ينظر الى شرف او مجد او كسب مالى فى استطاعته أن يعتبر مشاركته فى ذلك بديلا عن كل الكفارات » ·

وهنا لدينا الاعفاء او الحل من الكفارة المفروضة على أحد الذنوب مقابل أداء عمل تكفيرى اخر · أن القوانين الكنسية الصادرة عن مجالس والتى وصلت الينا ليست جديرة بالثقة تماما بتمام ، وان كانت قد تكررت فى خطاب اوربان الثانى الى بولونا Bologna ، وبها اشارة الى مجمع كليرمونت ، واكد على أن اولئك ، « الذين ذهبوا من اجل خلاص أرواحهم وتحرير الكنيسة فحسب ، بفضل نعمة الله ، وصلوات الكنيسة الكاثوليكية ، وبسلطتنا وبسلطة كل رؤساء الأساقفة تقريبا والأساقفة فى بلاد الغال ، اننا نلغى كل العقوبات الذاتية التى ينزلونها بأنفسهم بتوجيه الكهنة penance » ·

وفى امكاننا الاستنتاج أن البابا أوربان الثانى نفسه لم يستقر رأيه على مصطلح فنى محدد عن الغفران الكنسى the Indulgence وربما كانت وجهة نظره عن الغفران الكنسى غير واضحة · ويبدو أن الشيء نفسه انطبق على خلفه البابا بسكال الثانى Paschal II ، الذى كتب عن غفران الخطايا عام ١٠٩٩ م ، وفى عام ١١٠١ م كتب عن الغاء الكفارات ·

واستمر الشك قائما أثناء النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، برغم وجود ميل تجاه فكرة الصفح والغفران عن الخطايا اكثر من العمل التكفيرى penance وهناك عبارات بشأن الصفح والغفران remission عن الخطايا فى قرارات مجمع لاتيران Lateran الأول ١١٢٣ م ، وفى المنشـــور البابوى للبابا أدريان الررابع Adrian IV سنة ١١٥٧ م ، كما أن الفكرة بصفة خاصة كانت واضحة تماما عند الدعوة للحملة الصليبية الثانية ٠ وكتب القديس برنارد St Bernard عن ، « الغفران الكنسى عن الخطـايا والمجد الأبدى » ٠ وأبلغ الذين تبادلوا الرسائل معه ، « تسلموا شـــارة الصليب ، لقد قيل للحبر الأكبر » ان كل ما يفعله الفرد على الأرض سيحاسب عليه فى السماء » ٠ ويمنحكم البابا الغفران الكامل عن كل الخطايا التى يعترف بها لكاهن الاعتراف بقلب يشعر بالندم » ٠

ويلاحظ من خطاب البابا أوجينيوس الثالث Eugenius III سنة ١١٤٥ م انه قد استعان فيه كثيرا بآراء البابا أوربان الثانى ، ثم قطع شوطا كبيــرا تجاه الفكرة المتطورة للغفران الكنسى ، وربما كان ذلك تحت تأثير القـديس برنارد St Bernard ٠ « بقوة الله العلى القدير ، وببركة بطرس رئيس الحواريين ، والذى فوضنا فى هذا الأمر ، نعلن أننا نمنح الصفح عن الخطايا، واعتبارها كأن لم تكن كما فعل سلفنا ، لكل من يبدأ الرحلة المقدسة ويكملها بكل ورع وتقوى أو مات وهو فى الطريق اليها ، وبذلك تكون كل الذنوب قـد سقطت عنه بعد أن يعترف أمام كاهن الاعتراف بقلب ذليل وشاعر بالندم ، وأنه سيحصل على ثمار النعيم الأبدى من الله » ٠

غير أن البابا الاسكندر الثالث اتخذ أكثر الخطوات اهمية فى ١١٦٥ ، عندما أعلن عن دعوته الأولى لشن حرب صليبية كرر بوضوح نصا فى رسالة البابا أوجنيوس الثالث الذى أصدرها ١١٤٥ م ،وأشار الى الغفران الكنسى المذكور آنفا ٠ وفى ١١٦٦ م منح هذا البابا الصفح عن كل الخطايا ، وأن كل من يشارك فى الحروب الصليبية تسقط عنه كل الذنوب absoiution

من هم الصـــليبيون ؟

فى استطاعة اى فرد ملاحظة اهم مقومات النـــذر الصليبى ، الأول الجنس ، والثانى المهنة ، وأن العمل الذى صدر النذر من أجله عمل مؤقت : اذ كان على الرجل العلمانى او الكاهن ترك عمله لفترة من الوقت والمشاركة فى حملة صليبية • وكثيرا ما يشير مؤرخو الحروب الصليبية الى الملوك ، وكبار الاقطاعيين والفرسان ويصفون أيضا الحركات بين الفلاحين بيـــد أنه من المهم التذكرة بأن الدعوة للمشاركة فى الحروب الصليبية لم تكن قاصرة على طبقة اجتماعية وأن الحرفيين والتجار وسكان المدن من كل الأنواع لعبوا دورا مهما ، بل ان المجرمين الذين صدرت ضدهم احكام قضائية بالعقوبة كان فى امكانهم اســتبدال تلك العقوبة واسقاطهز عنهم فى مقابل المشــاركة فى الحرب الصليبية أو الاستيطان فى الأرض المقدسة • وفى أواخر القـــرن الثانى عشر جرت فى انجلترا محاولات لوضع قائمة للصليبيين الذين يعيشون فى مناطق معينة • ففى لنكولنشاير Lincolnshire كان جميعهم تقريبا من الفقراء وكان من بينهم ، احد رجال الدين ، وحداد ، وتاجر جلود ، وخزاف ، وتاجر خمور ، وتاجر لحوم ، وفى أبرشية كورنول Cornwall بلغ عدد الصليبيين ٤٢ صليبيا من بينهم أحد رجال الدين ، وحداد ، وصانع أحذية ، واثنين من القساوسة ، وتاجر ، وطحان ، واثنين من الدباغين ، واثنين من النساء • وفى ١٢٥٠ م كانت الســـفينة سانت فيكتـــور St. Victor التى أبحرت من فرنسا الى المشرق الاسلامى ، تحمل ٤٥٣ من الصليبيين ، من بينهم ١٤ من الفرسار ، وقادة المجموعات ، و ٩٠ من الخدم والأتباع و ٧ من رجال الدين ، والباقى ٣٤٢ كانوا من عامة الشعب ، وتشير القابهم وكنيتهم الى أن معظم هؤلاء كانوا من سكان المدن ، ومن بينهم ٤٢ سيدة ، من بينهـــن ١٥ سيدة فى صحبة أزواجهن ، وواحدة سافرت مع والدها واثنتين مـــع اخوتهم •

ولذلك كانت المشــاركة فى حمــلة صــليبية تضــم رجال ونساء من كل الطبقات ، حتى القرن الثالث عشر عندما مكن الخلاص الشخصى من الخطيئة redemption كثيرا منهم من تحرير أنفسهم من الخطيئة يدفع مبالغ : ومن الطريف معرفة كيفية تنظيم تلك الجماعات المتغايرة العادات والتقاليد ، وان كان هذا الموضوع لم يتم بحثه وفى استطاعة الفرد مجرد تقديم بعض الأفكار

التجريبية • وعندما شارك الملك لويس السابع فى الحملة الصليبية ، او فيليب الثانى ، او ريتشارد الأول ، او اى شخصية بارزة مهمة مثـــل ثيباوت من شمبين Thibaut of Champagne اولورد ادوارد، كان طبيعيا انه لابد ان يكون قائدا بلا منازع، برم من أنه اذا ما شارك اكثر من ملك فى حملة صليبية واحدة فمن المستحيل أن يرضى أحدهما ان يكون تابعا للآخر ، وظلت القوات الفرنسية المشاركة فى الحملة الصليبية الثالثة مستقلة بكل عناد عن ريتشارد الأول ملك انجلترا حتى بعد رحيل فيليب الثانى ملك فرنسا • ثانيا ، فالفارس جوفرى من سيرجين Geoffrey of Sergines قام بتنظيم جماعته التابعة له، ثم قادهم الى خوض المعركة • ثالثا ، عملت الجماعات الصليبية ، التى تجمعت على وجه السرعة وفقا لتشابه ظروفها او اوضاعهم المالية ، او وفقا لاجتذاب كل مجموعة من اقليم واحد ، على اختيار قادتهم بانفسهم • وربما كان تعيين هؤلاء القادة العسكريين بصفة مؤقتة ـ بمجرد وصول اعضاء الفرقة الأولى من الحملة الصليبية الخامسة الى مصر اختاروا احد الأفراد قائدا عليـــهم حتى قدوم باقى الجيش ـ وان كان ثمة قادة شغلوا مناصبهم بصفة دائمـة ولابد ان هذه الطريقة كانت شائعة : وفى القرن الثالث عشر افترض مترجـم كتاب تاريخ وليم الصورى ان هذا الوضع حدث ابان الحملة الصليبية الأولى• ومن ملاحظة وجود هذا الوضع ابان التجهيز للحملة الصليبية الرابعة عندما تم اختيار بونيفس من مونتفيرات Boniface of Montferrat كقائد، وكذلك ابان الحملة الصـــليبية الخامسة ، لأنهـــم اختـــاروا وليم الهـــولندى William of Holland كقائد ، وجـــــورج من ويد George of Wied كنائب للقائد ، وذلك عندما تجمعوا للرحيل ، وذلك بمعرفة المشـــاركين فى الحملة من اهالى الراين the Rineland ، واهالى الأراضى المنخفضـــة the Low Countries ، وما أن وصلوا مصر حتى انقسم الصليبيون الى امم ، ويبدو أن الألمان اختـــاروا ادولف من بيرج Adolf of Berg لقيادتهم ، وبعد موته فى ١٢١٨م تم اختيار جورج من ويد خلفا له • ولاريب انه كان من الضرورى اختيار أحد افراد طبقة النبلاء لشغل مثل هذا المنصب• رابعا ، وربما قامت السلطات المختصة فى الغرب الأوربى باختيار قـادة لقيادة الفرق العسكرية من مناطقهم • ومن المحتمل ان المدن الايطالية مثـل استى Asti ، وربما سينا Sienna قامت باختيار القادة قبل رحيل

قوانهم ، وذلك فى عهد الحملة الصليبية الخامسة · خامسا ، وربما تاتى مبادرة من احدى الشخصيات الكبرى أو كاهن كبير أو سكان مدينة فى الغرب الأوبى بهدف تنظيم انفسهم فى شكل جمعية خيرية Confrater nity وهى احدى انماط الجمعيات الشائعة برغم انهم جميعا قد عقدوا العـــزم على الدفاع عن العالم المسيحى · وفى ١١٢٢ م لعبت جمعية خيرية دورا مهما فى استرداد إسبانيا ، واخرى فى مدينة تولوز Toulouse للمشاركة فى الحملة الصليبية الالبجنسية Albigensian Crusade ، وكان أسقف تولوز هو الذى اسس هذه الجمعية · وقادت تلك الجمعيات الخيرية فى أسبانيا ، وبيزا ، ولومباردى ، وبســـكانى ، وانجلترا ، وشاتودو Chateaudum فى فرنسا بالاتفاق على جماعات الصليبيين فى المشرق الاسلامى ، وظهـــرت اهمية تلك الجماعات من خلال الدور المهم الذى لعبه قادتها فى ســياسة مملكة بيت المقدس الصليبية ·

ان وجود اعداد كبيرة من الصليبيين كانوا فى الأصل يمارسون أعمالا وحرفا كثيرة يجعلنا نسلم بوجود اسباب متعددة دفعتهم للمشاركة فى حرب صليبية · ولم يكن جميعهم قد تحرك بدافع المثل العليا ، وفى فترة ما من الوقت كان امرا نمطيا تفسير دوافع الصليبيين وبخاصة الحملة الصليبية الأولى كانت دوافعها اقتصادية كلية تقريبا · وكانت ثمة حالة من الشقاء الاقتصادى فى اجزاء من فرنسا فى أواخر القرن الحادى عشر ، وقد اظهرت الدراسات الحديثة كيف ساهمت التطورات الاجتماعية المعقدة عند طبقة الفرسان فى الاستجابة للدعوة الصليبية فى مناطق معينة · وان الرغبة فى حياة جـديدة فى ارض جديدة ، أو حتى احساس بالواجب تجاه أسرة المرء ، حمل المرء على ان يتحمل الانتقال الى مكان بعيد ، فى الاسترداد فى أسبانيا ، وفى صقلية ، وفى انشاء المستعمرات والاقامة بها شرق الالب the Elbe ، كما تظهر تلك الرغبة فى الغزو اللاتينى لفلسطين ثم بلاد اليونان فيما بعد · ومن الممكن وجود بعض الشك بشأن فرصة مغادرة البلاد لفترة قصيرة من الوقت مـع الاحتفاظ بأراضيهم ، فبالاضافة الى المكاسب المستجدة أثناء غيابه ظل كل ذلك مصانا فى فترة الغياب ، وتاجيل الدعاوى القضائية · واتضح مؤخرا كيف ان الاستجابة للدعوات للمشاركة فى الحـــروب الصليبية فى أواخر الستينيات من القرن الثالث عشر فى انجلترا كانت مرتبطة بنتائج الحـــرب

الأهلية التى دارت قبل ذلك التاريخ بعدة سنوات ، حيث ذهب الكثيرون ممن لهم مكاسب أو تصرفات أثناء الحرب سوف تضعهم تحت طائلة القانون ، كل هؤلاء شاركوا اللورد ادوارد the Lord Edward حملته الصليبية ، وبذلك تخلصوا من القرارات التى كان من الممكن أن تصدر ضدهم لعدة سنوات ٠

غير انه من الممكن استخلاص الكثير من الدوافع الدنيوية على حساب المثل العليا ٠ وربما تحكمت الضغوط الاقتصادية والاجتمـــاعية فى بعض الأحوال من النواحى النفسية مما جعلتهم يسارعون فى الاستجابة لدعـوة أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ م ، بيد أنه من المهم الا نخلط الحركة الاستعمارية التى ظهرت ما أن استولى الصليبيون على فلسطين وسوريا بردود الفعـــل التى حدثت عند رحيل الحملة الصليبية الأولى ٠ ومن البعيد عن الاحتمـال افتراض أن أولئك الذين كانوا يبحثون عن الأرض والممتلكات ، والتى كانت من قبل موجودة بالفعل فى اسبانيا والمانيـــا ، انهم قد وجـــدوا المكاسب الاستعمارية ، بكل يسر فى نهاية مسيرة على امتداد الطريق ، وبالاضــــافة الى ذلك فغالبا ما يجد المرء أن الاستجابة للدعوة للمشاركة فى الحـــرب الصليبية تحكمت فيها مواقف الشخصيات الكبرى فى أحياء ومناطق معينة : فما أن تقرر تلك الشخصيات الذهاب حتى يسارع الأتباع فى المشاركة ايضا ٠ بيد أنه اذا ما كانت تلك الشخصيات الكبرى لديها دوافع اقتصادية تفرض عليها البقاء فكانوا يميلون الى ذلك ولا يذهبون مع الحملة الصليبية ٠ ولابد أن أهداف الحروب الصليبية وغاياتها جـــذبت الكثير دون رياء ٠ وعبر المشاركون فى الحـرب الصليبية عن المشاعر الفياضة للقيم الروحية المبسطة، ولا ريب أن سلطان تلك المشاعر سيطر عليهم لفترة طويلة من الوقت ٠ أمـا عامة الناس فقد أثر فيهم مفهوم الفارس الجديد ، وتأثروا بالرغبة فى خـدمة المسيح بالالتحاق بالحملة الصليبية وبالدفاع عن الكنيسة ، وبوضع ايديهم على البلاد التى صارت مقدسة لأن المسيح عاش بها ٠

جوفرى من ســـيرجين :

كانت الحروب الصليبية فى أوج قوتها ونشــــاطها فيما بين ١١٨٧ و ١٢٥٠ م ، وبعد ذلك بدأ التحمس لها فى الضعف رويدا رويدا فى جـــو تزايد فيه الايمان بأن السلوك البشرى تهيمن عليه المصالح الذاتية وحـــدها

Cynicism واللامبالاة · ومع ذلك يجب الا نبالغ فى التدهور التـــدريجى لذلك التحمس ، لأن الدعوة للحرب الصليبية ظلت تعمل على اثارة الحماس عند الرجال لعدة قرون · ولن يكون من غير الملائم ان تخصص بضع صفحات عن سيرة أحد كبار القادة الصليبيين فى منتصف القرن الثالث عشر ، برغـم انه حاليـــا فى طى النســـيان تقـــريبا · وهـــو جـوفرى من سيرجين Geoffrey of Sergines (حوالى ١٢٠٥ ـ ١٢٦٩ م) ، وهو من أبنـاء قرية تقع شمال السين Sens ، وهى ليست بعيدة عن باريس · وكان لأسرته علاقات وثيقة بالكنيسة : فكان أحد اخوته رئيس لدير القديس جاك ـ دى ـ بروفين St Jacques-de-Provins وبطرس من سيرجين رئيس اساقفة مدينة صور ، وهو الذى اسره المسلمون فى موقعة غزة ١٢٤٤ م ، وهو احد اقارب جوفرى ، وكذلك مارجريت من ســـيرجين رئيســـة دير مونتيفلير Montivilliers ، وهى احدى قريباته ·

اشار كتاب الحوليات الى جوفرى Geoffrey عند ذكر العمليات العسكرية التى دارت فى فلسطين فى ١٢٤٢ م و ١٢٤٤ م · ومن المحتمل أن جوفرى وصل المشرق الاسلامى فى أول سبتمبر ١٢٣٩ م فى حملة صـــليبية غير مشهورة تحت قيـــادة ثيباوت من شـــمبين Thibaut of Champagne والدوق هوج من بورجوندى Huge of Burgundy وتلك الحملة كان من بين افرادها عدد من كبار الموظفين والخدم التابعين للتاج الفرنسى · وعاد جوفرى الى فرنسا فى ١٢٤٤ م ، ثم سافر للشرق مع الملك لويس ١٢٤٨ م ، الذى ارتبط به ارتباطا وثيقا منذ ١٢٣٦ م ، عندما سمح له سيده الاقطاعى السابق ، الكونت هوج من بلو Hugh of Blois ، ان يصير تابعا اقطاعيا للملك ، وهى اكثر فعالية لاضفاء صفة رسمية على علاقة وثيقة ، طالما أن الفرد كان مرتبطا بسيده الاقطاعى · وتوطدت صداقة حميمة بين الرجلين وفقا لما ورد فى الكتابة التاريخية عن حملة لويس التاسع الصليبية للمؤرخ حنا من جوافيل John of Joinville · وكتب حنا عن جوفرى أنه كان أحـد الذين كانوا من اقرب المقربين للملك لويس التاسع مثلما كان حنا من جوافيل تماما بتمام · وكان جوفرى أحد الجماعة المختارة من ثمانية رفاق حرصوا على حماية الملك لويس التاسع فى دمياط ، كما حضر كل اجتماعات الملك طوال

الحملة الصليبية ، وكان موضع ثقة بشأن الواجبات المهمة • وفى الخامس من ابريل ١٢٥٠ م عندما تعرضت الحملة الصليبية للتراجع والانسحاب من المنصورة ، فى حالة من الفوضى والاضطراب وقف جوفرى وحده بجوار الملك يحميه ، ويدافع عنه ضد المصريين ، كما يفعل الخادم الخاص المخلص الذى يضرب الذباب بكل عنف حتى يظل بعيدا عن سيده • وفى ابريل ١٢٥٤ م بدأ الملك لويس التاسع رحلة العودة للوطن ، واتخذ الاجراءات التى تسمح بترك جوفرى فى الشرق كوكيل اقطاعى له Seneschal فى بيت المقدس، وسمح له بقيادة فرقة خاصة تتكون من مائة فارس ، وزوده بالأموال التى تسمح له بتعيين عدد اضافى من الرامين بالقوس والنشاب Crossbowmen ومن الرقباء • Sergeants • وتحتاج ممارسة سلطات هاتين الوظيفتين المختلفتين الى بعض التفسير • وكانت مهمة الوكالة الاقطاعية Seneschaley أعظم الوظائف اهمية واعتبار والسيطرة على الوظائف الكبرى فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، وظل جوفرى شاغلا تلك الوظيفة حتى وفاته • وفى غياب الملك أو الوصى على العرش ، وبشرط الا يكون الحاكم قد عين موظفا ينوب عنه فى غيابه ، فيحق للوكيل الاقطاعى أن يرأس اجتماعات المجلس الأعلى ، وهو أهم المجالس الملكية والذى به يحق لأتباع السيد الاقطاعى (الملك) التباحث والتشاور • وبذلك كان جوفرى الرجل الثانى فى هيئة السلطة الملكية • وقام جوفرى أيضا بالاشراف على الشئون المالية والخزانة العامة التى كانت تسير وفقا للنظام المالى الاسلامى • وبهذه الوظيفة أصبح جوفرى حائزا لاقطاعه فى بيت المقدس واحتل مرتبة فى مستوى كبار القادة السياسيين فى المملكة • ولابد أن شغله لوظيفته لفترة طويلة من الوقت قد زوده بخبرة منقطعة النظير فى العمل فى الجلسات والادارة الملكية ، بيد انه لا يصح أن يستدل المرء من ذلك بطريقة آلية انه كانت لديه قدرات ادارية، لأنه مع تعيينه يمكن ملاحظة وجود تحول فى طريقة اختيار الوكلاء الاقطاعيين• وخلفه اثنان وهما روبرت من كريسك Robert of Grésqùes فى ١٢٦٩ م ، وحنا من جريلى John of Grailly من سنة ١٢٧٢ م الى ١٢٧٨ م ، اللذان كانا على شاكلته من ناحية كونهم من الصليبيين الذين تولوا قيادة فرق عسكرية يتفق عليها ملك فرنسا ، وربما كان ملك فرنسا هو الذى طلب أن تكون الوكالة الاقطاعية Sensechaley قاصرة على القادة كجزء من

العمل الواجب انجازه بشان التمويل الدائم للحامية العسكرية فى الأرض المقدسة ٠

وما أن تم تعيين جوفرى فى الوظائف فى المملكة حتى تولى اهـــم المسئوليات خطورة ٠ ومنذ ١٢٥٩ م الى ١٢٦١ م ، ومن ١٢٦٤ م الى ١٢٦٧م حكم فلسطين نيابة عن الحكام فى حالة غيابهم ، ومن سبتمبر ١٢٦١ م الى ١٢٦٣ م ، وربما لعدة اشهر قليلة سنة ١٢٦٤ م كان جوفرى وصيا على العرش ٠ ولذلك حكم جوفرى مملكة بيت المقدس لعدة فترات قصيرة من ١٢٥٩م الى ١٢٦٧ م ، وفعل ذلك على ما يرام ٠

وقام جوفرى باتخاذ قرار فى حادثة مخزية تورط فيها احد الفرسان، الذى كان قد قتل اسقفا قبرصيا ، ثم هرب هذا الفارس ، وطلب حماية اهالى بيزا Pisan ، فى مدينة عكا ، المدينة الرئيسية فى المملكة ٠ واجتاح جوفرى حى اهالى بيزا فى عكا ، ومعه جماعة من الفرسان المدججين بالسلاح - كرمز له ، كحاكم قوى فى مواجهة التجار الايطاليين الذين كانوا على قدر كبير من الثراء والقوة - واخيرا أجبر اهالى بيزا على تسليم القاتل اليه ٠

وفى سنة ١٢٥٤ م قام الملك لويس التاسع بتعيين جوفرى Geoffrey قائدا لفرقة فرنسية تركها فى الأرض المقدسة ، وكانت جهود جوفرى العسكرية سببا فى شهرته فى الغرب الأوربى وظلت هذه الفرقة الفرنسية تحت قيادة جوفرى ، ثم خلفه مثل أولفر من تيرم Oliver of Terms ، ثم ارارد من فليرى Erard of Valery ثم روبرت من كريسك Robert of Créséques وكانت بين اقوى الفرق العسكرية المقاتلة فى الأرض المقدسة ٠ وظل جوفرى قائدا على القوات الفرنسية كلها حتى وفاته ٠ ومن المفروض ان التاج الفرنسى كان يتولى الانفاق على تلك القوات غير أن هناك اشـــارة تهكمية للشـــاعر روتبيوف Rutébeuf توحى بوجود عجز فى الأموال منذ منتصف الخمسينيات للقرن الثالث عشر الميلادى ، وقادة الداوية والاسبتارية وجوفرى، وأولفر من تيرم ، الى الملك لويس التاسع نيابة عن بعض التجار الذين كانوا قد اقترضوا منهم ١٥٠٠ جنيها فرنسيا Livres ، ولم يتمكن التجـــار من استرداد المبالغ التى اقرضوها ، من ملك فرنسا لأنهم فقدوا الايصـــالات

التى كانوا قد ارسلوها فى احدى السفن الغارقة التى كانت متجهة الى فرنسا وأضاف كل من جوفرى واوليفر أنهما استدانا مبلغ ٢٥٠٠ جنيها توريا Livres of Tours بضمان الثقة فى الملك لويس التاسع · وفى ١٢٦٧ م كتب بطريرك بيت المقدس خطابا الى قائد جماعة فرسان الداوية Templars فى فرنسا ، به تعليمات مفصلة بشأن التحركات الدبلوماسية التى يجب عليهم انجازها لمساعدة قضية الأرض المقدسة فى قصور حكام غرب أوربا · وأشار الى أن جوفرى احتاج الى عشرة الاف جنيها توريا فى السنة للانفاق على قواته فى العام السابق على ذلك الطلب · وكتب البطريرك أن بعض فرسان جوفرى كانوا راغبين فى مغادرة الأراضى المقدسة ، والعودة للوطن ولذلك اضطر البطريرك ، ورئيس جماعة فرسان الداوية ، وجماعة فرسان الاسبتارية لدفع حقوق هؤلاء الفرسان من أموال الجزء المئوى المخصص للحرب الصليبية ، والتى قامت الكنيسة الفرنسية بجبايته · غير أن الملك لويس التاسع كان قد ارسل ١٢٦٦ م خطابات ضمان الى جوفرى وارارد من فاليرى Erard of Valery ، لدفع الأموال للحجاج الفرسان فى الأرض المقدسة ، · وفى يونية ١٢٦٧ م قام كل من جوفرى وارارد بتسليم ايصالات وحصلوا على خطابات مصدق عليها بمعرفة رؤساء جماعتى فرسان الداوية والاسبتارية ·

وباختصار عاد جوفرى الى الغرب الأوربى فى أوائل الستينيات من القرن الثالث عشر · وفى ذلك الحين أعلن انضمامه للحرب الصليبية مرة ثانية وأعد العدة للسفر للمشرق الاسلامى فى صحبة جماعة كبيرة من الفرسان · وفى الثالث عشر من فبراير ١٢٦٢ م منح البابا اوربان الرابع جوفرى اذنا ، باعتباره احد الصليبيين ، أن يكون فى حيازته مذبحا قابلا للحمل والنقل a portable altar حتى يتمكن من اقامة القداس Mass وتم السماح للقسيس المرافق له بمنح الأسرار المقدسة الى فرسانه ورفاقه ، وحصل على عدم جواز المثل الشخصى للبابا أو اسقف عكا اصدار قرار الحرم excommunication أى الحرم من شركة المؤمنين interdict الا اذا ورد ذكره فى قرار بابوى على وجه التخصيص · وكشفت السنوات القلائل التالية عن اخلاصه الشديد للحركة الصليبية التى الزمته بالبقاء فى المشرق الاسلامى حتى وفاته والتى جعلت منه انسانا مفلسا تقريبا · وفى ذلك الحين كان يقود

رفاقه بالاضافة الى القوات التى ينفق عليها الملك لويس التاسع . وفى فبراير ١٢٦٣ م طلب البابا أوربان الرابع من ملك فرنسا ، وملك نافار Navarre الذى كان كونتا لاقليم شمبين Champagne ، وكان مالكا لأراضى فى فرنسا ، أن يرسلا الأموال التى تم تحصيلها من ضريبة السوق ، واطلق عليها دينار الله denarius Dei ، والتى كانت فى العادة تنفــق فى الأغراض الخيرية ، أن يتم ارسالها الى جوفرى نفسه الذى اخذ على عاتقه من الناحية العملية العبء كله الخاص بحماية فلسطين ، وعملية الاعاشة التى كانت تحت تهديد العبء : ومنح البابا الغفران الكنسى Indulgence لكل أولئك الذين دفعوا دينار الله ، وكل أولئك الذين ساهموا فى جمع هذه المبالغ . وربمـــا بعد ذلك بوقت قصير ابدى البابا كليمنت الرابع Clement IV خليفة اوربان الرابع ، فى الفترة ما بين فبراير ويونيه ١٢٦٥ م اهتماما خاصا بمطالب جوفرى . وفى خطابات الى الملك لويس التاسع ، والى رئيس اساقفة عكا اكد المسئول عن جمع الضرائب الصليبية فى فرنسا على أن جوفرى اخذ على عاتقه مهمة العمل على كل مافيه الخير للارض المقدسة ، وذلك ما ذكره ايضا البابا أوربان الرابع . وعلى الرغم من أن التاج الفرنسى كان يقدم المساعدات المالية الى جوفرى فانه تعرض لكثير من المعاناة المادية ، ولذلك طلب اعانة ماليةمن اموالجزء منمائة الخاصة بالحروبالصليبية Crusade hundredth فى فرنســا . ووافق البابا على طلب جوفرى ، وكتب اليــه أن الدعــم المالى فى طريقه اليه ، وذكر ، مشجعا له ، انه يعترف بالأرض المقدسة فى حاجة اليه . وفى شهر يونيه تسلم جوفرى مبلغا قدره خمسمائة جنيــه ، غير أنه كان فى حاجة اكثر ، وفى منتصف ١٢٦٧ م كتب بطريرك بيت المقدس بجوفرى سيترك فلسطين ليبيع اقطاعاته فى فرنسا ما لم تصله الأموال .

ومات جوفرى فى الحادى عشر من ابريل ١٢٦٩ م . وعلى الرغم من أن جوفرى كان نشطا ، ولم يكن قائدا فاشلا ، وعمل وكيلا اقطاعيا ، ووصــيا على العرش ، وقائم مقام للاوصياء على العرش ، فانه لم يكن مفكرا عقلانيا ، ولم يكن هناك دليل على ذلك فى الكتابات المرتبطة بطبقة النبلاء الاقطاعية فى فلسطين ، وهى طبقة اجتماعية كانت على استعداد لامتداح المقدرة العقليــة . وعلى الرغم من أن جوفرى كان شجاعا . ومحاربا جيدا فلدينا دليل عــلى

وجود عمل يدل على الحماقة باعتبار جوفرى كان القائد العسكرى المسئول ، ففى اغسطس ١٢٦٦ م ، كان جوفرى رئيسا لفصيلة من طليعة جيش مسيحى كان يغير على منطقة الجليل Galilee ، غير ان تلك الفصيلة تعرضت لكمين اعده المسلمون ، وقضى المسلمون عليهم قضاء مبرما لعدم مبالاتهم وابتعادهم عن الجيش الرئيسى اثناء بحثهم عن الغنائم · وكانت صفات وخصائص جوفرى تقليدية - وكان حنا من جوانفيل قد وصفه بانه « فارس جيد ورجل حكيم » - وقام روتبيف Rutebeuf شاعر فرنسا الشهير بتلخيص صفات جوفرى فى قصيدة شهيرة تحت عنوان ، « مناقب السيد جوفرى من سيرجين » ، التى كتبها ١٢٥٥ - ١٢٥٦ م حيث انه كان يعرف المكان الذى عاش فيه جوفرى فى فرنسا · وبالنسبة للشاعر الفرنسى روتيبيف ، كان جوفرى فارسا مُدربا تدريبا عاليا ، وشجاعا ، وكريما · ولم يخدع احدا على الاطلاق سواء اكان ضعيفا أم قويا ، وكان كريما مع الجيران الفقراء ·

وكان جوفرى صادقا ، وغير متحيز كالقاضى · وكان جوفرى مخلصا للقديس لويس الى ابعد مدى ، ومخاطرا بحياته دفاعا عن الملك اثناء الانسحاب من المنصورة فى ١٢٥٠ م ·

الفرسان الرهبان :

من المشكوك فيه اذا ما كان من الواجب على المرء ان يفرد فصلا خاصا بالأخوة الرهبان المسلحين عند الحديث عن الحروب الصليبية · وفى الحقيقة تم تاسيس انظمة الرهبان المسلحين كمؤسسات متطورة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحركة الصليبية ، وعملت المثل العليا على اثارة حماسهم والهامهم · واخذ هؤلاء الرهبان المسلحون على عاتقهم استرداد الأراضى المسيحية او الدفاع عن العالم المسيحى ، ومارسوا اعمالهم جنبا الى جنب مع الصليبيين او فى نفس المناطق التى عمل بها الصليبيون · وارتبط الرهبان المسلحون بحركة المدافعين عن الدين المشاركين لهم وبخاصة التدريس برنار St Bernard وبعد ذلك بثمانية عقود وصف جيمز من فيترى James of Vitry واجبات الرهبان المسلحين بخصوص الحروب الصليبية فيما يلى : « لقد تم رسامة الاخوة فى المنظمات المسلحة الخاصة بالرهبان للدفاع عن كنيسة

المسيح بالسيف المادى ضد اولئك الذين خارج الكنيسة ، ونعنى بذلك ضد المسلمين فى سوريا ، وضد المغاربة فى اسبانيا ، وضد الوثنيين فى بروسيا Prussia ، وليفـونيا Livonia وكومانيا Cumania وضد المنشقين فى بلاد اليونان وضد الذين لا يؤمنون بمذهب الكنيسة الرومانية heretics فى كل مكان على امتداد الكنيسة العالمية » .

واستمر القول بأن هذه التنظيمات تختلف فى عاداتها وتقاليدها ، بيد انها كانت كلها متحدة فى الدفاع عن الكنيسة ضد غير المسيحيين . ومهما كانت أهداف المنظمات الدينية فهى تتفق اتفاقا وثيقا مع الصليبيين ، وان كان هؤلاء الاخوان غير صليبيين . وبعض تلك المنظمات مثل منظمة فرسان الداوية Templars اخذ أعضاؤها عهودا على انفسهم بتادية الأعمال التى تعهدوا القيام بها والتى لها تشابه باعمال الصليبيين ، وهى استعادة بيت المقدس ، والدفاع عن الأرض المقدسة ، اما الوعود التى كان يقدمها اى اخ فى جماعة فرسان القديس حنا Hospital of St John هى الطاعة ، والعفة ، والفقر مثل القن وعبد لأرض ، ولم ترد أي اشارة الى اى شىء يتعلق بالدفاع عن العالم المسيحى . بل وحتى اذا ما فرضت منظمة عسكرية رهبانية على أعضائها ضرورة التعهد بالدفاع عن العالم المسيحى فان صيغة الوعد كانت مختلفة عن صيغة قسم الصليبى الى حد كبير . وكان الراهب فى المنظمات العسكرية يردد ذكر واجباته بصفة مستمرة ، فهو ليس حاجا ، ومن تم فان نذر القيام باداء متطلبات الحج لا تدخل ضمن قسمه ونذره على الاطلاق . وقام جيمز من فيترى James of Vitry بايضاح الفرق بين الفرد الصليبى ، وراهب أى منظمة عسكرية فى عظاته حيث ذكر قصة فرد صليبى كان قد وقع أسيرا مع بعض فرسان الداوية Templars فى أيدى المسلمين - وعندما ساله المسلمون عما اذا كان احد الفرسان الداوية أجاب الصليبى قائلا : « اننى فارس علمانى واحد الحجاج » .

ليس من السهل اطلاق أحكام عامة على المنظمات العسكرية الخاصة بالرهبان لكثرة عدد تلك المنظمات ، ولوجود اختلافات فى الشكل بين بعضهم البعض . فهم يتبعون اسسا وقواعد مختلفة . فهناك منظمات مثل الفرسان وداوية أو المعبد ، وفرسان الاسبتارية أو القديس حنا ، والقديس لزروس

St Lazarus جمعوا الأعضاء من كل انحاء العالم المسيحى اللاتينى ، اما المنظمات الأخرى ، مثل فرسان القديسة مريم فكانت من الألمان (الفرسان Order of the Teutonic Knights والسانياجو Santiago والكانتر، Alcantra ، وكالترافا Calatrava ، والقديس توما St Thomas كان يتم جمعهم على اساس قومى . وكان بعض تلك المنظمات على قـــدر كبير من الثراء مثل فرسان الداوية ، وفرسان الاسبتارية ، اما المنظمات الأخرى فكانت صغيرة وفقيرة . وبعض تلك المنظمات كانت متمتعة بامتيازات كبيرة ، ومعفية من سلطة الأساقفة فى الابرشيات ، ولم تكن مسئولة الا امام روما فقط .

٥ ـ متى كانت الحروب الصليبية ؟

والآن وقد اوشكنا على الوصول الى نهاية بحثنا ، ووصلنا الى المرحلة التى تمكننا من تقديم تحديد وتعريف • كانت الحروب الصليبية مظهرا لحرب مقدسة مسيحية جرت رحاها ضد غير المسيحيين infidels فى المشرق الاسلامى ، وفى اسبانيا ، وفى ألمانيا ، وضد المسـيحيين الذين لا يؤمنون بمذهب الكنيسة فى روما heretics ، وضـد المنشقين على كنيسـة روما Schimatics ، وضد الخصوم العلمانيين الذين ناصبوا الكنيسة فى روما العداء ، من أجل استرداد ممتلكات أو من أجل الدفاع • ومن ناحية المعنى التقليدى فهى قضية حتمية مرتبطة باحتياجات العالم المسيحى أو الكنيسة اكثر من مجرد احتياجات أمة أو منطقة بعينها ، وباعتبارها عملية المسـيح نفسهلذلك فهى ليست مجرد عمل ممكن تبريره ، وانما هى مقدسة من الناحية العملية • واضفى البابا موافقة شرعية على الحرب الصليبية باعتباره رئيسا للعالم المسيحى وممثلا للمسيح اكثر من كونه حاكما دنيويا • فعلى الأقل اقسم بعض المشاركين فى الحروب الصليبية على خضوعهم للكنيسة ، واكدوا على وجود بعض السيطرة البابوية عليهم فى شئون لا تمت بصلة بشن الحرب من الناحية العملية • وكانت النظرة الى أى حملة صليبية على انها شـكل من اشكال الحجج الى الأرض المقدسة ، وغالبا ما أطلق على الصليبيين وحملاتهم المصطلح الفنى terminology للحجاج الصليبيين ، كما أن النذر الذى اخذه الصليبيون على انفسهم كان مبنيا على اساس انهم حجاج ولهم امتيازات كثيرة ، وبخاصة حماية أنفسهم ، وأسرهم وممتلكاتهم • وكان الصليبيون يحصلون على الغفران الكنسى لما تقدم من ذنوب ويدخلون الجنة بغير حساب Indulgence ، وفقا لما قررته البابوية فى روما •

والآن من الواجب محاولة تقديم الحدود الزمنية وفقا لتسلسلها للحركة الصليبية • متى كانت الحملة الصليبية الأولى ومتى كانت اخر حملة صليبية ؟ ويمكن الحصول على جوانب عنالشطر الأول منالعمل الىحد ما اذا ما بحثنا فيما قبل ١٠٩٥ م ، بشأن احدى الحملات العسكرية التى كان ينظر اليهـا على أنها حملة صليبية ، واذا ما بحثنا فى خطط وأهداف حملة أخرى • ففى ١٠٦٣ ـ ١٠٦٤ م قاد دوق اقليم اكويتين Aquitaine حمـلة

عسكرية فرنسية ، وتعاون مع أهالى كاتلان Catalans ، وأهالى أرغون Aragonese ، واستولوا جميعا على مدينة بربسترا Barbarsto من المسلمين فى أسبانيا • وفى الوقت نفسه تم اعلان هدنة الله a Truce of God ، فى اقليم كاتالونيا Catalcnia لكى يكون هناك سلام خلف خطوط القتال ، كما منح البابا الاسكندر الثانى أول غفران كنسى Indulgence للمقاتلين • ومما تقدم نجد جيشا مكونا من اكثر من دولة تحارب المسلمين من أجل استرداد أراضى كانت مسيحية فى وقت ما ، واتحد هذا الجيش المسيحى فى شكل حملة صليبية ، وشجعه البابا الذى منح الغفران الكنسى للمشاركين فى الحرب • غير أنه لم يكن هناك ترخيصا بابيا ولم يكن هناك مفهوما عن الحج وقبل كل شىء لم يقم المشاركون بالقسم والنذر ولذلك لم تكن هناك حماية للمقاتلين • وعلى ذلك لا يمكن أن نطلق عليها حملة صليبية من الناحية الواقعية •

وفور انتهاء معركة ملاذكرد ١٠٧١ م اجتاح الأتراك السلاجقة أسيا الصغرى ، وناشد ميخائيل السابع الامبراطور البيزنطى الشاب البابا الجديد جريجورى السابع سرعة تقديم المساعدة والعون ، ولم يضع هذا الامبراطور البيزنطى فى اعتباره المشاعر غير الودية المتبادلة بين الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية • وكانت استجابة البابا جريجورى السابع نشطة ، على أمل احداث تقارب بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ، وما زالت هناك خمس رسائل حتى الآن كتبها هذا البابا الى عدد من الشخصيات الكبرى فى الفترة ما بين فبراير وديسمبر ١٠٧٤ م • واسهب البابا فى وصف المعاناة والآلام التى تعرض لها المسيحيون الشرقيون، وعلى ضرورة تقديم المساعدة الأخوية اليهم • وشبه هذا البابا الخدمة فى الجيش بالخدمة فى الكنيسة ، وطالب من الجميع ، « الدفاع عن الايمان المسيحى ، والملك السماوى » ، واكد البابا على المكافآت المقدسة السماوية الناجمة عن ذلك : فكتب فى أحد الخطابات ، « بتقديم الأعمال التى لها اهمية كبيرة تستطيعون الحصول على النعمة الابدية » واعلن البابا ذلك بكل قوة انه اذا كان موت المرء دفاعا عن وطنه أمرا يدعو للفخر والاعتزاز فان الموت من أجل المسيح اكثر اعتزازا وفخرا • ولقد كانت الحملة العسكرية تابعة

له . وكان فى امكانه قيادتها بنفسه : فقد كتب الى هنرى الرابع ملك المانيا ان هناك ما يزيد على خمسين الف مقاتل على استعداد للذهاب اذا كان البابا معهم ، « فى الحملة كقائد وكاهن اكبر » بل انه قد أشار الى استطاعته قيادة الجيش والتقدم صوب القبر المقدس the Holy Sepulchre • ويبدو أن ذلك البابا فكر بطريقة غير عادية عندما رأى أن يتولى هنرى الرابع ملك المانيا الدفاع عن الكنيسة الرومانية فى فترة غياب البابا فى الشرق • وبالطبع يلاحظ أن كثيرا من تلك المعلومات لها مبالغة ، وأن الخطط قد تم صرف النظر عنها عندما أصبح كل من هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع مشغولين فى النـــزاع حـــول تعيين العلمانيين لرجـــال الدين فى المنـــاصب الدينية Investiture Contest • بيـــد انه فى اســـتطاعة المـــرء مـــلاحظة وجود مفهوم الحرب المقدسة وسلطة البابوية فى تلك الحرب ، وفى بعض المكافآت الابدية ، وفى الاشارة الى بيت المقدس أيضا • وربما كانت افكار البابا جريجورى السابع اكثر تطورا من المستوى الذى كشفت عنه تلك الرسائل كان ينظر اليه فيما بعد على اساس انه مبتكر فكرة الحروب الصليبية ـ فى حين أن ما نعرفه عن البابا أوربان الثانى يجعل من الممكن انه كان يسير وفقا لما سار عليه معلمه الاول • بيد اننا لا نستطيع أن نذهب بعيدا على ضـــوء الدليل الذى أمامنا • ولا تحتوى خطابات جريجورى على أية صلة واضحة بين الحملة العسكرية التى تم التخطيط لها وبين رحلة الحج الى الاراضى المقدسة ، ولم ترد بتلك الخطابات أية اشارة عن النذر الصليبى ، وما تمخض عنه من ضرورة رعاية مصالح الصليبيين • والى أن تظهر أدلة أخرى يجد المرء نفسه مضطرا الى الاقرار بأن الخطط التى جرى تنفيذها ١٠٧٤ م لـــم تكن بالحقيقة خطط حملة صليبية ، وأن عام ١٠٩٥ م هو التاريخ التقليدى والمتفق عليه لظهور الحركة الصليبية هو الاصح وأن الحركة نشأت بناء على مبادرة تقدم بها البابا أوربان الثانى

ولا يزال من غير الممكن تقرير متى انتهت الحروب الصليبية • وهنـــاك عناصر معينة ما زالت موجودة منذ عهد بعيد • ان الترخيصات البابوية لشن حرب ضد المسلمين وكذلك منح الغفران الكنسى لمن يشارك فى حرب صليبية Indulgences ظلت تحـــدث بصفة مستمرة حتى الربع الاخير من القرن الثامن عشر • واستمر فرسان القديس حنا The Knights of St. John

يشنون هجمات متتالية وان كانت غير فعالة على الاتراك حتى ١٧٩٨ م عندما اجبرهم نابليون Napoleon على مغادرة جزيرة مالطة ، وان كان تنظيمهم الديرى ما زال موجودا · وفى اسبانيا كانت هناك ضريبة كنسية مرتبطة بمنح الغفران الكنسى لتدعيم الحروب الصليبية ، وظلت هذه الضريبة الكنسية موجودة فى امريكا اللاتينية فى العصور الحديثة ذاتها · بيد انه متى حدثت المرة الاخيرة التى تجمعت فيها العناصر الاساسية للترخيص البابوى بشن حرب صليبية ، والغفران الكنسى المتعلق بالمشاركة فى الحروب الصليبية ، والنذر الخاص بالمشاكة فى الحرب الصليبية ، مع بعضهم البعض· اذ ان وجود خطابات بابوية معلنة الدعوة لحرب صليبية ، ومنح الغفران الكنسى لمن يشارك فيها ليس كافيا · متى حدثت آخر الحروب الصليبية ؟ وفى الوقت الحاضر لا يمكن الاجابة على هذا السؤال · وهناك رجال شاركوا فى حروب صليبية فى القرن السادس عشر ، وهناك البعض الذى شارك فى حروب صليبية فى القرن السابع عشر ، ومن الممكن فى اوائل القرن الثامن عشر ، حيث قاتلوا فى صفوف جيوش البندقية أو النمسا Austria او فى الحلف المقدس the Holy League ضد الاتراك ·

غير انه كلما اقتربنا من الوقت الحاضر كلما زادت حركة الضباب التى تحجب عنا الرؤية السديدة · وبصراحة لا يمكن تحديد تاريخ آخر حملة صليبية وفقا للمعنى الحقيقى للمصطلح ، وكذلك الدليل على حدوث النذور الخاصة بالحرب الصليبية الا بعد ان يتقدم احد المغامرين من المؤرخين باجراء بحث علمى فى هذا الشان · وليس امامنا سوى القول بأن آخر حملة صليبية حدثت كانت منذ ثلاثة قرون مضت ·

انتهت والحمد لله

الفهــــرس